


# المدنية الإسلامية

## رسالة
## همة الهمام في نشر الإسلام

تأليف
شمس الدين سامي فراشري

ترجمة وتقديم
محمد م. الأرناؤوط

دار الكتاب اللبناني
بيروت

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

دار الكتاب المصري
القاهرة

يستهدف هذا المشروع اعادة عرض كتابات النهضة واعلامها في العالم الاسلامي، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (١٩-٢٠م)، ويتوجه الى قطاع عريض من القراء والمثقفين من طلاب الجامعات والمعاهد والباحثين المهتمين بالفكر النهضوي في تراثنا؛ كي يتمكنوا من الاطلاع على افكار هؤلاء الرواد واعمالهم، والتي تتعرض للاسئلة والتحديات التي واجهت الامة العربية والاسلامية، لدى احتكاكها بالعالم الغربي منذ بدايات القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وكيف حاول علماء الامة ومفكروها الاجتهاد في الاجابة عن هذه الاسئلة والتحديات في زمانهم. وما زال كثير من تلك القضايا مطروحا علينا؛ مما يلقي على علماء الامة ومفكريها الان استيعاب تلك الافكار والاسترشاد بها ومن ثم مسئولية الاجتهاد في هذه القضايا من منطلق متغيرات العصر.

دار الكتاب اللبناني
بيروت

# المدنية الإسلامية

## هـذا الكتـاب

طُبع لأول مرة عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) باللغة التركية في إسطنبول، وتلك هي أول ترجمة عربية له. جاء صدوره في وقت عصيب؛ ليشحن القُراء- آنذاك- بالأمل في نهضة جديدة، بإطلاعهم على ما وصل إليه المسلمون من مدنية على مستوى العالم بفضل اهتمامهم بالعلم والمعرفة، في الوقت الذي كان ينبهر فيه البعض بالمدنية الأوروبية الحديثة التي أخذت تسيطر على العالم بآلتها العسكرية، وتأكيده على أن المسلمين يمكن بذلك الطريق نفسه أن يستعيدوا مشاركتهم في المدنية الحديثة.

يركز شمس الدين سامي فراشري على «المدنية الإسلامية» وإسهاماتها على المستوى العالمي في كل المجالات العلمية، وأن «المدنية الأوروبية الحديثة» قامت بالاستناد إلى «المدنية الإسلامية»، ولم تولد مباشرة من «المدنية اليونانية القديم».

كما يُلحّ على: إعلاء قيمة الإنسان والعقل، وأن الإسلام ليس دين عنف، ولم ينتشر بالسيف، ولا يتعارض مع العلم والحقيقة والحياة، بل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمدينة. وأن التمدّن لا يبدأ من فراغ ولا يختص بشعب؛ بل هو حصيلة التراكم البشري.


سلسلة

في الفكر النهضوي الإسلامي

الإشراف العام

إسماعيل سراج الدين

إدارة المشروع

صلاح الدين الجوهري

ألفت جافور – هالة عبد الوهاب- حنان عبد الرازق

اللجنة العلمية

محمد عمارة - محمد كمال الدين إمام

صلاح الدين الجوهري - إبراهيم البيومي غانم

الإشراف على الإخراج الفني

ألفت جافور

تصميم جرافيكي: عاطف عبد الغني

الإشراف على مراجعة النصوص

أحمد محمد شعبان - محمد القاسم

مراجعة لغوية: عمر حاذق – عائشة الحداد

الأعمال التحضيرية والمتابعة

بسمة عبد العزيز ـ هدى سيد ـ شيماء التركي




# المدنية الإسلامية

## ورسالة

## همة الهمام في نشر الإسلام


تأليف

شمس الدين سامي فراشري

ترجمة وتقديم

محمد م. الأرناؤوط



١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢ م

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة - أثناء - النشر (فان)

فراشري، شمس الدين سامي، 1850-1904.

المدنية الإسلامية / تأليف شمس الدين سامي فراشري؛ ترجمة وتقديم وتعليق محمد م. الأرناؤوط. — الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، 2012.

ص. سم. (في الفكر النهضوي الإسلامي)

تدمك 978-977-452-169-4

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

1. الحضارة الإسلامية. 2. الإسلام والحضارة. أ. الأرناؤوط، محمد م. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي — 909.09767 2012619696

ISBN: 978-977-452-169-4 رقم الإيداع: 9210/2012

تتقدم مكتبة الإسكندرية بالشكر والتقدير

للوكالة السويسرية للتنمية والتعاون Swiss Agency for Development and Cooperation (SDC)

ومؤسسة كارنيجي بنيويورك Carnegie Corporation of New York

على الدعم المادي والمعنوي الذي قدّمتاه للمشروع.



| دار الكتاب المصري<br>القاهرة | دار الكتاب اللبناني<br>بيروت |
|---|---|
| ٣٣ شارع قصر النيل | شارع مدام كوري |
| تليفون: ٢٣٩٢٢١٦٨ / ٢٣٩٣٤٣٠١ / ٢٣٩٢٤٦١٤ | تجاه فندق بريستول - بيروت |
| ص.ب: ١٥٦ العتبة | تليفون: ٧٣٥٧٣٢ |
| الرمز البريدي ١١٥١١ - القاهرة - ج.م.ع. | ص.ب: ٨٣٣٠ - ١١، بيروت - لبنان |
| فاكسميلي ٢٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢) | فاكسميلي ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١) |
| القاهرة Fax: (202) 23924657 | بيروت Fax: (9611) 351433 |

**الطبعة الأولى**

**١٤٣٤ هـ - ٢٠١٢ م**

**First Edition**
**A.D. 2012 - H 1434**

**Website: www.daralkitabalmasri.com**
**E-mail: info@daralkitabalmasri.com**



**هذا الكتاب ضمن فعاليات مشروع «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر والعشرين الميلاديين»**

# المحتوى


مقدمة السلسلة ........ ٩

تقديم ........ ١٥

## كتاب «المدنية الإسلامية»

**البشر والقابلية للتمدن** ........ ٣

**تواصل التمدن في التاريخ العالمي** ........ ٩

**«مدنية عربية» أم «مدنية إسلامية» ؟** ........ ١٥

**خصوصية المدنية الإسلامية** ........ ١٩

**مرجعية المدنية الإسلامية** ........ ٢٣

**انتشار المدنية الإسلامية ونتائجه** ........ ٢٥

**العلوم عند العرب قبل ظهور الإسلام وبعده** ........ ٢٩

**علم الفلك** ........ ٣١

تطور علم الفلك حتى عهد المأمون ........ ٣٣

تطور علم الفلك بعد المأمون ........ ٣٩

تطور علم الفلك خلال حكم البويهيين ........ ٤٥

تطور علم الفلك في الدولة الفاطمية ........ ٥٠

تطور علم الفلك في المغرب والأندلس ..... ٥٣
تطور علم الفلك في المغرب الأقصى ..... ٥٦
تطور علم الفلك حتى الدولة العثمانية ..... ٥٨
آخر إنجازات علم الفلك ..... ٦١
**علم الرياضيات** ..... ٦٧
**علم الجغرافيا** ..... ٧٣
سفارات المسلمين وخرائطهم ..... ٨٠
**العلوم الطبيعية** ..... ٨٣
**علم النباتات** ..... ٨٥
**الطب** ..... ٨٧
الطب في الأندلس ..... ٩٠
**الفلسفة** ..... ٩٣
مدارس الفلسفة وأعلامها ..... ٩٥
**القانون** ..... ٩٧
**الأدب** ..... ١٠١
الآثار الأدبية الخالدة ..... ١٠٥
مكانة الشعر عند المسلمين ..... ١٠٧

التاريخ ........ ١٠٩
المعاجم والموسوعات ........ ١١٧
الحِرَف والفلاحة ........ ١١٩
بعض الاكتشافات ........ ١٢٣
خاتمة ........ ١٢٥

■ رسالة «همة الهمام في نشر الإسلام» ........ ١

## مقدمة السلسلة

إن فكرة هذا المشروع الذي أُطلِق عليه «إعادة إصدار مختارات من التراث الإسلامي الحديث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريَّيْن / التاسع عشر والعشرين الميلاديَّين»، قد نبعت من الرؤية التي تتبناها مكتبة الإسكندرية بشأن ضرورة المحافظة على التراث الفكري والعلمي في مختلف مجالات المعرفة، والمساهمة في نقل هذا التراث للأجيال المتعاقبة تأكيدًا لأهمية التواصل بين أجيال الأمة عبر تاريخها الحضاري؛ إذ إن الإنتاج الثقافي - لا شكَّ - تراكمي، وإن الإبداع ينبت في الأرض الخصبة بعطاء السابقين، وإن التجديد الفعال لا يتم إلا مع التأصيل. وضمان هذا التواصل يعتبر من أهم وظائف المكتبة التي اضطلعت بها، منذ نشأتها الأولى وعبر مراحل تطورها المختلفة.

والسبب الرئيسي لاختيار هذين القرنين هو وجود انطباع سائد غير صحيح؛ وهو أن الإسهامات الكبيرة التي قام بها المفكرون والعلماء المسلمون قد توقفت عند فترات تاريخية قديمة، ولم تتجاوزها. ولكن الحقائق الموثقة تشير إلى غير ذلك، وتؤكد أن عطاء المفكرين المسلمين في الفكر النهضوي التنويري - وإن

مر بمدٍّ وجزر – إنما هو تواصل عبر الأحقاب الزمنية المختلفة، بما في ذلك الحقبة الحديثة والمعاصرة التي تشمل القرنين الأخيرين.

يهدف هذا المشروع – فيما يهدف – إلى تكوين مكتبة متكاملة ومتنوعة، تضم مختارات من أهم الأعمال الفكرية لرواد الإصلاح والتجديد الإسلامي خلال القرنين الهجريَّيْن المذكورَيْن. والمكتبة إذ تسعى لإتاحة هذه المختارات على أوسع نطاق ممكن، عبر إعادة إصدارها في طبعة ورقية جديدة، وعبر النشر الإلكتروني أيضًا على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)؛ فإنها تستهدف في المقام الأول إتاحة هذه المختارات للشباب وللأجيال الجديدة بصفة خاصة.

ويسبق كلَّ كتاب تقديمٌ أعده أحد الباحثين المتميزين، وفق منهجية منضبطة، جمعت بين التعريف بأولئك الرواد واجتهاداتهم من جهة، والتعريف بالسياق التاريخي/ الاجتماعي الذي ظهرت فيه تلك الاجتهادات من جهة أخرى؛ بما كان فيه من تحديات وقضايا نهضوية كبرى، مع التأكيد أساسًا على آراء المؤلف واجتهاداته والأصداء التي تركها الكتاب. وللتأكد من توافر أعلى معايير الدقة، فإن التقديمات التي كتبها الباحثون قد راجعتها واعتمدتها لجنة من كبار الأساتذة المتخصصين، وذلك بعد مناقشات مستفيضة، وحوارات علمية رصينة، استغرقت جلسات متتالية لكل تقديم، شارك فيها كاتب التقديم ونظراؤه من فريق الباحثين الذين شاركوا في هذا المشروع الكبير. كما قامت مجموعة من المتخصصين على تدقيق نصوص الكتب ومراجعتها بما يوافق الطبعة الأصلية للكتاب.

هذا، وتقوم المكتبة أيضًا - في إطار هذا المشروع - بترجمة تلك المختارات إلى الإنجليزية ثم الفرنسية؛ مستهدفة أبناء المسلمين الناطقين بغير العربية، كما ستتيحها لمراكز البحث والجامعات ومؤسسات صناعة الرأي في مختلف أنحاء العالم. وتأمل المكتبة أن يساعد ذلك على تنقية صورة الإسلام من التشويهات التي يلصقها البعض به زورًا وبهتانًا، وبيان زيف كثير من الاتهامات الباطلة التي يُتَّهم بها المسلمون في جملتهم، خاصة من قِبَل الجهات المناوئة في الغرب.

إن قسمًا كبيرًا من كتابات رواد التنوير والإصلاح في الفكر الإسلامي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لا يزال بعيدًا عن الأضواء، ومن ثم لا يزال محدود التأثير في مواجهة المشكلات التي تواجهها مجتمعاتنا. وربما كان غياب هذا القسم من التراث النهضوي الإسلامي سببًا من أسباب تكرار الأسئلة نفسها التي سبق أن أجاب عنها أولئك الرواد في سياق واقعهم الذي عاصروه. وربما كان هذا الغياب أيضًا سببًا من أسباب تفاقم الأزمات الفكرية والعقائدية التي يتعرض لها أبناؤنا من الأجيال الجديدة داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية وخارجها. ويكفي أن نشير إلى أن أعمال أمثال: محمد عبده، والأفغاني، والكواكبي، ومحمد إقبال، وخير الدين التونسي، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي، وعلاَّل الفاسي، والطاهر ابن عاشور، ومصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، وعلي شريعتي، وعلي عزت بيجوفتش، وأحمد جودت باشا - وغيرهم - لا تزال بمنأًى عن أيدي الأجيال الجديدة من الشباب في أغلبية البلدان العربية والإسلامية، فضلاً عن الشباب

المسلم الذي يعيش في مجتمعات أوروبية أو أمريكية؛ الأمر الذي يلقي على المكتبة عبئًا مضاعفًا من أجل ترجمة هذه الأعمال، وليس فقط إعادة نشرها بالعربية وتيسير الحصول عليها (ورقيًّا وإلكترونيًّا).

إن هذا المشروع يسعى للجمع بين الإحياء، والتجديد، والإبداع، والتواصل مع الآخر. وليس اهتمامنا بهذا التراث إشارة إلى رفض الجديد الوافد علينا، بل علينا أن نتفاعل معه، ونختار منه ما يناسبنا، فتزداد حياتنا الثقافية ثراءً، وتتجدد أفكارنا بهذا التفاعل البناء بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، فتنتج الأجيال الجديدة عطاءها الجديد، إسهامًا في التراث الإنساني المشترك، بكل ما فيه من تنوع الهويات وتعددها.

وأملنا هو أن نسهم في إتاحة مصادر معرفية أصيلة وثرية لطلاب العلم والثقافة داخل أوطاننا وخارجها، وأن تستنهض هذه الإسهامات همم الأجيال الجديدة كي تقدم اجتهاداتها في مواجهة التحديات التي تعيشها الأمة؛ مستلهمة المنهج العلمي الدقيق الذي سار عليه أولئك الرواد الذين عاشوا خلال القرنين الهجريين الأخيرين، وتفاعلوا مع قضايا أمتهم، وبذلوا قصارى جهدهم واجتهدوا في تقديم الإجابات عن تحديات عصرهم من أجل نهضتها وتقدمها.

لقد وجدنا أن من أوجب مهماتنا ومن أولى مسئولياتنا في مكتبة الإسكندرية، أن نسهم في توعية الأجيال الجديدة من الشباب في مصر، وفي

غيرها من البلدان العربية والإسلامية، وغيرهم من الشباب المسلم في البلاد غير الإسلامية بالعطاء الحضاري للعلماء المسلمين في العصر الحديث، خلال القرنين المشار إليهما على وجه التحديد؛ حتى لا يترسَّخ الانطباع السائد الخاطئ، الذي سبق أن أشرنا إليه؛ فليس صحيحًا أن جهود العطاء الحضاري والإبداع الفكري للمسلمين قد توقفت عند فترات زمنية مضت عليها عدة قرون، والصحيح هو أنهم أضافوا الجديد في زمانهم، والمفيد لأمتهم وللإنسانية من أجل التقدم والحث على السعي لتحسين نوعية الحياة لبني البشر جميعًا.

وإذا كان العلم حصاد التفكير وإعمال العقل والتنقيب المنظم عن المعرفة، فإن الكتب هي آلة توارثه في الزمن؛ كي يتداوله الناس عبر الأجيال وفيما بين الأمم.

إسماعيل سراج الدين

مدير مكتبة الإسكندرية

والمشرف العام على المشروع

# تقديم

محمد م. الأرناؤوط

## المؤلف وعصره

يُعتبر المفكر الألباني شمس الدين سامي فراشري (١٢٦٦-١٣٢٢هـ/ ١٨٥٠-١٩٠٤م) من الشخصيات المعروفة والمؤثرة في الرأي العام العثماني، من خلال مؤلفاته الكثيرة التي قاربت الستين، والتي شملت مجالات عديدة كالتاريخ والجغرافيا واللغة والأدب... إلخ. ومن خلال الصحف الكثيرة التي شارك فيها أو أصدرها، والتي لعبت دورًا مهمًّا في نقل أفكاره إلى شريحة عريضة من الجمهور. ومن الأسباب التي ساعدت شمس الدين سامي على انتشار أفكاره، سواء في الإطار العثماني أو حتى إلى ما هو أبعد من ذلك؛ معرفته عدة لغات، ونشره لكتاباته بالتركية والألبانية والعربية والفارسية واليونانية، وترجمة مؤلفاته إلى عدة لغات كالبلغارية والفرنسية والإيطالية وغيرها. كما أن استمرار الاهتمام بأفكاره من بعد وفاته في عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) جعل مؤلفاته تصدر في طبعات جديدة وتترجم إلى لغات أخرى، كما عقدت حوله ندوات إقليمية ودولية في إستانبول وتيرانا وبريشتينا وسكوبيه بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته،

تزامنت مع نشر «الأعمال المختارة» له في عشرين مجلدًا. وبعبارة أخرى، لا يزال شمس الدين سامي حاضرًا بما أثاره من أفكار رائدة كان لها تأثيرها في مسار الأحداث، سواء على المستوى العثماني أم على مستوى ألبانيا.

وفيما يتعلق باللغة العربية والعالم العربي فقد تميّز شمس الدين سامي بمعرفته الواسعة باللغة العربية وتراثها الأدبي وتاريخ المنطقة؛ حيث كانت له إسهامات لغوية وأدبية في ذلك، بالإضافة إلى مؤلفاته في اللغة العربية التي يأتي على رأسها: «تاريخ طرابلس الغرب»، و«همّة الهمام في نشر الإسلام». ولكن باستثناء عرضنا لكتابه «همّة الهمام» الذي نشر قبل حوالي ٢٥ سنة في مجلة «العربي» الكويتية لم يحظ شمس الدين سامي بما يستحقه من اهتمام من قبل الجانب العربي[1]. ومن هنا فإنّ صدور كتابه «المدنية الإسلامية» في إطار هذه البادرة الحضارية لمكتبة الإسكندرية، التي تسعى إلى إعادة نشر وترجمة مختارات من الكتب الرائدة للمفكرين المسلمين في القرنين التاسع عشر والعشرين، إنما يشكّل فرصة للتعرف عليه وعلى إسهاماته الرائدة.

ولد شمس الدين سامي عام (١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م) في قرية فراشري Frasheri بجنوب ألبانيا؛ ولذلك اشتهر لدى الألبان باسم سامي فراشري على عادتهم بالانتساب إلى القرية أو المدينة التي يولدون فيها. وقد ولد سامي في أسرة شاركت بدور كبير في النهضة القومية الألبانية؛ حيث إنه مع أخويه الناشط

(١) مجلة «العربي» عدد ٣٢٥، الكويت، ديسمبر ١٩٨٥، ص ١٢١-١٢٦.

السياسي عبدل فراشري (١٢٥٥-١٣٠٩هـ/ ١٨٣٩-١٨٩٢م) والشاعر نعيم فراشري (١٢٦٢-١٣١٨هـ/ ١٨٤٦-١٩٠٠م) كانوا يمثّلون ثلاثيًّا متكاملاً في الربع الأخير للقرن التاسع عشر[١].

وكان الأب خالد بك يمثّل النظام العثماني الآيل إلى الانهيار (نظام التيمار)؛ ولذلك بعد وفاته في عام (١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م) انتقلت الأسرة من قرية فراشري، التي كانت تتبع ولاية يانينا آنذاك، إلى مركز الولاية؛ حيث عمل عبدل موظفًا في إدارة الولاية بعد أن أصبح يقوم بأعباء الأسرة. وقد ارتقى عبدل في الهرم الوظيفي حتى أصبح مديرًا لجمرك الولاية في عام (١٨٧٧م)، وهي السنة التي انتخب فيها عضوًا في البرلمان العثماني الأول الذي التأم بإستانبول في (ربيع الأول ١٢٩٤هـ/ مارس ١٨٧٧م). وقد اهتم عبدل بتعليم أخويه سامي ونعيم[٢].

وأما ما يتعلق بسامي فكان قد أكمل التعليم الابتدائي في القرية؛ حيث كان قد تعلم هناك التركية والعربية والفارسية، قبل أن تنتقل الأسرة إلى مدينة يانينا القريبة ليلتحق بمدرستها المشهورة «زوسيما». وإذا كان سامي قد أخذ معه

---

(١) للمزيد حول دور هؤلاء الإخوة انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة – تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ص ٢٤-٢٥.

(2) Riza Sadiku, Hasan Kaleshi-Jeta dhe vepra, Prishtine, 1996, pp 84-86.

من القرية بذرة القومية الألبانية، التي كان مقرها التكية البكتاشية[١] هناك، فإن إقامته في يانينا جعلته ينفتح على العالم العثماني والعالم الأوروبي؛ فقد كانت يانينا مركزًا للولاية التي حاول أن يستقل بها علي باشا أو «بونابرت المسلم» في الربع الأول من القرن التاسع عشر قبل أن تحاصره قوات الدولة العثمانية، وتتمكن من قتله في عام (١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م)[٢]. وكان علي باشا كمعاصره محمد علي باشا في مصر[٣] قد حاول أن ينجز مشروعًا للتحديث، وترك بعد موته في يانينا ما يدل على ذلك.

وقد تأثر سامي بنشأته في هذه المدينة إلى حد أنه استلهمها لإنجاز رواية له فيما بعد. ومن ناحية أخرى فقد ساهمت المدرسة المعروفة «زوسيما» في تكوينه جيدًا، باطلاعه على العلوم الحديثة، وبعض اللغات الأوروبية التي وسعت كثيرًا من خريطة اهتماماته، فقد اعترف لاحقًا أنه قد تعلم في هذه المدرسة خلال سبع

---

(١) البكتاشية: طريقة صوفية تنسب إلى بكتاش ولي، الذي انتقل من خراسان إلى الأناضول في القرن الثالث عشر، وانتشرت بشكل خاص لدى الألبان خلال الحكم العثماني، بعد أن تطعّمت بعناصر محلية. وقد سعى الأخ الأصغر لشمس الدين سامي، الشاعر المعروف نعيم فراشري إلى أن تكون دينًا قوميًّا للألبان من خلال ملحمته الشعرية «كربلاء» وديوانه «دفاتر بكتاشية». للمزيد انظر كتابنا: مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الألباني، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٠، ص ٣١-٦٥.

(٢) للمزيد عنه انظر أحدث ما صدر باللغة الإنجليزية:

K.E. Fleming. The Muslim Bonaparte: The Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece, Princeton (Princeton University Press) 1999.

وانظر عرضنا لهذا الكتاب: علي باشا يانينا المظلوم، جريدة «الحياة»

(٣) كان جرجي زيدان أول من تنبّه وعقد مقارنة بين الشخصيتين ليوضّح أسباب نجاح الأول وفشل الثاني: علي باشا تبتندلي ومحمد علي با شا الكبير، مجلة «الهلال»، ج ٧، القاهرة، ١ يناير ١٨٩٩م، ص ١٩٤-٢٠٠.

سنوات من الدراسة الجادة اللغات اليونانية القديمة واليونانية الحديثة والفرنسية والإيطالية، كما درس التاريخ والجغرافيا والعلوم الرياضية وعلم الهيئة والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي والتشريح[١].

وبهذه الحصيلة اللغوية والثقافة الشرقية والغربية ذهب إلى العاصمة العثمانية إستانبول في عام (١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) ليلتحق هناك بالنخبة الألبانية التي كانت تسعى لإثبات نفسها على مستوى الدولة العثمانية (خوجه تحسين وباشكو فاسا... إلخ). وقد التحق سامي أولاً بالوظيفة الحكومية، حيث عمل في قلم المطبوعات، كما انطلق يعمل في الصحافة التي أخذت آنذاك تلعب دورًا متزايدًا في الدولة العثمانية، وفي مجال الأدب الحديث الذي أخذ يتطور بسرعة، ويؤثر في الرأي العام العثماني الجديد.

وقد لفت شمس الدين سامي الأنظار إليه بقوة في عام (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م) حين أصدر رواية «عشق طلعت وفتنة» التي تعتبر أول رواية فنية في الأدب التركي الحديث. وقد كان للرواية صداها الكبير؛ لأنها كانت تمسّ التقاليد الموروثة باختيارها لموضوع الحب وحق المرأة في اختيار الزوج، وهو ما شجعه على التفكير في تأليف روايتين أخريين لم تصلا لنا للأسف[٢].

(١) Zija Xholi, Sami Frasheri – Monografi, Prishtine (Rilindja) 1978, p. 10

(٢) شكران كورداكول، الأدب التركي المعاصر، ترجمة بكر صدقي، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧، ج ١، ص ٣٢.

وبعد أن عمل أولاً مع جريدة «سراج» انتقل في عام (١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م) إلى جريدة «حديقة» التي تولى تحريرها منذ العدد الرابع الصادر في (٢٣ صفر ١٢٩٠هـ/ ٢١ إبريل ١٨٧٣م). ولكن الجريدة أغلقت بعد صدور ٧٢ عددًا منها بسبب نشر مقال أزعج السلطات العثمانية آنذاك. ومن المثير أن العدد الأخير منها قد تضمّن القرار الموجب لذلك[١]. وهناك من يرى أن هذا المقال كان السبب وراء إبعاد أو نفي سامي إلى طرابلس الغرب في عام (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م)؛ حيث عهد إليه هناك بتولي الجريدة الرسمية للولاية (طرابلس الغرب) التي كانت تصدر باللغتين التركية والعربية[٢]. وقد استفاد سامي من وجوده في طرابلس الغرب خلال العامين (١٨٧٤-١٨٧٥م)؛ ليعمّق معرفته أكثر بالثقافة العربية والتاريخ الإسلامي، حتى إنه ألّف هناك كتابه «تاريخ طرابلس الغرب» الذي نشره على حلقات في الجريدة المذكورة[٣].

---

(١) ورد في قرار المنع المنشور على الصفحة الأولى: «نظرًا لأن جريدة حديقة تنشر مقالات تهيج الأفكار على عكس خطط الدولة... فلذلك تمنع الجريدة ابتداء من هذا العدد».

وكانت الجريدة قد نشرت في العدد السابق له مقالاً دون توقيع بعنوان «الخدمة العسكرية»، يشير فيه المؤلف (سامي على الأغلب) إلى تذمر العرب والألبان من الانخراط في الخدمة العسكرية؛ لعدم تكيُّفهم مع النظام الجديد، والتدريب باللباس العسكري الجديد، وبسبب الوقت الطويل الذي تستغرقه الخدمة، ولأن الفرق العسكرية التي ينخرطون فيها لا تبقى في بلادهم؛ بل ترسل إلى مناطق بعيدة عن بلادهم. ومن الواضح هنا أن هذا ينسجم مع فكر سامي حول تمتع شعوب الدولة العثمانية بنوع من الحكم الذاتي يشمل الخدمة العسكرية للمكلفين في بلادهم خلال أوقات السلم.

(٢) Zymber Hasan Bakiu. Bibliografi e zgjeruar e veprave te Sami Frasherit, Prishtine (Rilindja) 1984, p.77

(٣) يورد الدكتور موسى أن جريدة «طرابلس الغرب» صدرت لأول مرة في عام ١٨٦٦م، بينما أصبح شمس الدين سامي رئيسًا لتحريرها منذ عام ١٨٧٣م، وهو ما يحتاج إلى تدقيق. وحسب قول الدكتور موسى هناك أعداد من الجريدة في مركز الوثائق بقلعة طرابلس (السراي الحمراء). محمد صلاح الدين موسى، الصحافة الأدبية في ليبيا من ١٨٦٩-١٩٦٩م، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٩٨م، ص ١٥٣-١٦٩و٥١٩.

ولكن شهرة سامي في الصحافة العثمانية ازدادت بعد عودته إلى إستانبول حين انضم إلى جريدة «صباح» التي كانت أول جريدة يومية في الدولة العثمانية. وكانت هذه الجريدة قد صدر العدد الأول منها في (١٤ صفر ١٢٩٣هـ/ ١٠ مارس ١٨٧٦م)، وظهر اسم سامي كرئيس للتحرير منذ العدد ١٠٦، واستمر كذلك إلى العدد ٢٥٧. وقد انتقل سامي بعدها إلى جريدة «ترجمان شرق» التي صدر العدد الأول منها في (٩ ربيع الآخر ١٢٩٥هـ/ ١١ إبريل ١٨٧٨م)، وظهر اسم سامي عليها كرئيس للتحرير ابتداء من العدد ٧٤، واستمر كذلك إلى العدد ١٧٩ [١]. وقد نشر سامي في هاتين الجريدتين عددًا كبيرًا من المقالات التي عبّرت عن تطوره الفكري والسياسي آنذاك، والتي سنتناولها لاحقًا.

وبالإضافة إلى الجرائد المذكورة فقد عمل سامي أيضًا في المجلات الجديدة التي أخذت تصدر في العاصمة العثمانية. فقد تولى أولاً رئاسة تحرير مجلة «محرر» التي أسّسها أبو الضيا أفندي في عام (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) ولكن عمله لم يستمر طويلاً، ثم تولى في عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) رئاسة تحرير مجلة «عائلة» التي كانت أول مجلة متخصصة في شئون الأسرة. وفي عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م) تولى سامي رئاسة تحرير مجلة «هفته» التي خُصصت للآداب والعلوم والفنون. وفي هذه المجلات أيضًا، وخاصة في الأخيرة، نشر سامي مجموعة من المقالات التي عبّرت أكثر عن تطوره الفكري والسياسي.

---

(١) Bakiu. Bibliografi, p.85

وإلى جانب الصحافة، فقد خاض سامي في مجال جديد ألا وهو التأليف المسرحي؛ حيث ألّف خلال وجوده في طرابلس الغرب (١٨٧٤-١٨٧٥م) مسرحية «بيسا أو عهد الوفاء» التي حققت نجاحًا كبيرًا في إستانبول خلال عام (١٨٧٤م)، وبقيت تعرض إلى أواخر الدولة العثمانية، كما ترجمت إلى الألبانية والبلغارية والإيطالية. وتمتاز هذه المسرحية بقيمة تاريخية؛ حيث إن سامي كان من أوائل كتّاب المسرحية في الدولة العثمانية مع إبراهيم شناسي (١٨٢٦-١٨٧١م) ونامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٤م)، كما تمتاز بقيمتها الفنية نظرًا للأفكار الجديدة التي ضمنها سامي، وسنعرض لها لاحقًا.

وقد تزامنت عودة سامي إلى إستانبول وعمله في الجرائد والمجلات المذكورة مع تطورات هامة في الدولة العثمانية وفي علاقاتها مع الدول الكبرى، وبالتحديد ثورة الصرب في البوسنة عام (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م)، وإعلان الدستور العثماني الأول في عام (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، والتئام البرلمان العثماني الأول بإستانبول في عام (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وإعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية في عام (١٨٧٧م)، ووصول الجيش الروسي إلى مشارف إستانبول في مطلع عام (١٨٧٨م)، وتجميد العمل بالدستور وحلّ البرلمان العثماني... إلخ. وخلال هذه السنوات - التي تميزت بنشره لعدد كبير من المقالات - تبلور الفكر السياسي لشمس الدين سامي، سواء بالنسبة للعلاقة مع الآخر (أوروبا والحضارة الأوروبية)، أو بالنسبة للعلاقة مع الداخل العثماني (الاعتراف بالتعدد القومي اللغوي ورفض الاستبداد السياسي... إلخ).

وفي هذا الإطار أعطى شمس الدين سامي التنوير أولوية مطلقة؛ لأنه كان يعتقد أن ما دفع أوروبا إلى الأمام هو اهتمامها بالعلم والمعرفة، بالاستناد إلى ما كان عند المسلمين في السابق؛ ولذلك أخذ يشغله هذا الأمر (التخلف الحضاري الحاصل عند المسلمين، والتقدم الأوروبي وسبل اللحاق بركب الحضارة من جديد). وبتركيزه على نشر المعرفة وتنوير المجتمع فقد قام بمبادرة غير مسبوقة في الدولة العثمانية، تتمثل في إصداره لـ «مكتبة الجيب» بالاتفاق مع الناشر المعروف مهران، والتي كانت تهدف إلى تناول مواضيع مهمة بأسلوب علمي في طبعات شعبية تهدف إلى نشر هذه الكتب في أوسع دائرة ممكنة. وهكذا فقد أصدر في عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) الكتاب الأول في هذه السلسلة، وهو كتابه «المدنية الإسلامية»، وتابع إصدارها حيث أصدر منها ٣٢ كتابًا، كان له منها ١٥ كتابًا، اشتملت على: «الأرض» و«السماء» و«الإنسان» و«المرأة» و«اللغة»... إلخ.

وقد حظي هذا الكتاب الأول بالذات (المدنية الإسلامية) باهتمام خاص، حتى إنه صدر في طبعة جديدة في عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م) وترجم إلى عدة لغات. ولكن في ذلك الوقت كان شمس الدين سامي قد دخل في المجال الأوسع الذي أبدع واشتهر فيه أكثر، ألا وهو القواميس والمعاجم الرائدة. فقد أصدر آنذاك خمسة قواميس لغوية ضمن مشروعه الفكري السياسي والتنويري الذي سنتعرض له، كما أصدر خلال الأعوام (١٨٨٩-١٨٩٨م) عمله الموسوعي

المعجم التاريخي الجغرافي «قاموس الأعلام» في ستة مجلدات، حوالي خمسة آلاف صفحة، الذي اشتهر به حتى أصبح اسمه مرادفًا له وكافيًا لأن يقال عنه «صاحب قاموس الأعلام».

وفي غضون ذلك كان شمس الدين سامي منشغلاً أيضًا بالوضع في وطنه الصغير(ألبانيا)، فأصدر في عام (١٨٩٩م) كتابه المهم «ألبانيا: الماضي والحاضر والمستقبل»، الذي قدم برنامج عمل للحركة القومية الألبانية الصاعدة آنذاك؛ مما جعله يعرف في الأوساط الألبانية فيما بعد بلقب «مؤدلج الحركة القومية الألبانية»[(١)].

وبسبب كتاباته ومواقفه السياسية ضد الاستبداد، فقد عانى شمس الدين سامي في سنواته الأخيرة من مضايقات السلطة إلى حد أن خروجه من البيت أصبح محدودًا جدًّا. وقد وصل الأمر في عام (١٨٩٩م) إلى حد منعه من الخروج من البيت، ومنع الناس من زيارته حتى للتهنئة بمناسبة زواج ابنته

---

(١) مع التقدير الذي حظي به سامي فراشري من مجايليه يلاحظ أن التاريخ الرسمي في ألبانيا بعد وصول الحزب الشيوعي للحكم في عام ١٩٤٥م قد اهتم به كثيرًا؛ حيث احتُفل عام ١٩٥٠م بالذكرى المئوية لولادته، وكذلك احتفل عام ١٩٥٤م بالذكرى الخمسين لوفاته؛ حيث أطلق عليه أولاً «رائد القومية الألبانية» ثم «مؤدلج القومية الألبانية»، بعد أن نشر المؤرخ كريستو فراشري دراسته عنه بهذا العنوان في الفرنسية أولاً عام (١٩٦٦م) ثم في الألبانية عام (١٩٦٧م):

Kristo Frasheri. «Semsettin Sami, Ideologue du mouvement National Albanais». Sudia Albanica 1,Tirana 1966 pp 95-110; K.Frasheri, «Sami Frasheri Ideolog i Levizjes Kombetare Shqiptare». Studime Historike, 2 Tirane 1967 pp 79-93.

سامية، بل إنه لم يُسمح له بالذهاب إلى مدينة «بورصة» المجاورة للاستشفاء بالمياه المعدنية هناك. وقد بقي على هذه الحالة إلى أن وافته المنية في (٥ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ/ ١٨ يونية ١٩٠٤م). وبعد وفاته بيعت مكتبته الغنية التي كانت تشتمل على حوالي ١٢ ألف كتاب لإيفاء الديون التي كانت عليه[١].

## المسار الفكري السياسي

ربما من الأفضل هنا أن نتحدث عن «المسار الفكري السياسي» لشمس الدين سامي؛ لأن الإطار الزمني الذي كتب فيه مؤلفاته (الربع الأخير من القرن التاسع عشر) كان شديد التعقيد بالنسبة للدولة العثمانية؛ ولذلك فإن انشغال سامي بالوضع السياسي والاجتماعي والثقافي، وبث أفكاره الجديدة في مقالاته ومؤلفاته المختلفة؛ كان يعبّر عن مسار فكري سياسي متنامٍ انتهى إلى المشروع الفكري السياسي. وفي هذا الإطار يمكن القول إن شمس الدين سامي مثله مثل الشخصيات الرائدة المعاصرة له (جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي... إلخ)، فُهم وفُسّر لاحقًا في مجتمعات مختلفة، وفي أنظمة مختلفة أيضًا (قومية وشيوعية وديمقراطية)، في تركيا وألبانيا وكوسوفا ومقدونيا؛ ولذلك قد نجد في الندوات والدراسات التي تتحدث عنه أكثر من شخصية لشمس الدين نفسه.

---

(١) Bakiu. Bibliografi, pp. 255- 256. C. Balim, "Shemsedin Sami Frasheri", *The Encyclopaedia of Islam*, Vol. VIII, Leiden (E.J.Brill)1995, p.1043

في عام (١٨٧٦م) حين أصدر شمس الدين سامي جريدة «صباح» وأخذ يكتب لاحقًا في جريدة «ترجمان الشرق» كانت الدولة العثمانية تنزلق نحو مسار خطير كان يهدد وجودها؛ ولذلك فإن مقالاته خلال السنوات اللاحقة (١٨٧٦-١٨٧٨م) اكتسبت أهمية خاصة، لأنها أطلعتنا على الأفكار السياسية الأولى له إلى أن أصدر في عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) كتابه «المدنية الإسلامية».

وفي تلك الفترة المبكرة، التي استغل فيها السلطان عبد الحميد الثاني الحرب مع روسيا، ليجمد العمل بالدستور، ويحل البرلمان، وازداد فيها الاهتمام بالداخل (السلطة السياسية ومآل الدولة العثمانية)، والخارج (اكتشاف التخلف والموقف من الحضارة الأوروبية)، انشغل شمس الدين سامي بجملة مواضيع متداخلة يمكن أن تدخل في محورين كبيرين:

أما المحور الأول فهو فكرة الدولة العثمانية ذاتها ضمن التطورات العاصفة التي عرفتها خلال تلك السنوات. ففي تلك الفترة المبكرة بلور شمس الدين سامي فكرته الأولى عن الدولة العثمانية، بالاستناد إلى مصطلحين جديدين أخذهما من اللغة العربية (الوطن والأمة) ليحلا محل المصطلح الآخر (الملّة) الذي تجاوزه الزمن. وهكذا فقد أخذ يروّج إلى فكرة أن كل رعايا الدولة العثمانية هم «عثمانيون» أو ينتمون إلى «الأمة العثمانية» بغض النظر عن الدين أو القومية؛ لأن الدولة العثمانية هي «الوطن المشترك» لهم. ومن هنا كان يقول في مواجهة التدخل الأوروبي المستمر في الدولة العثمانية باسم حماية الأقليات

الدينية والإثنية: «نحن – العثمانيين – نسعى إلى حماية حقوق وطننا المشترك»، ويؤكد هنا على تضامن «الوطن» و«الأمة»[1].

ويرتبط بهذا المحور أيضًا تبلور فكر وموقف سامي من نظام الحكم في الدولة العثمانية. ففي مقال مبكر نشره في جريدة «صباح» بتاريخ (٨ يوليو ١٨٧٦م) ينطلق من أن «نظام الحكم المطلق هو السبب الرئيس وربما الوحيد لوقوع الدولة منذ زمن في المشاكل الكبيرة، ولتخلف وطننا عن البلدان الأوروبية»، وبعد أن يشرح مزايا وفوائد النظام التمثيلي (المجلسي أو البرلماني) للشعب والدولة في آن يؤكد أن مثل هذا النظام له ما يؤيده من «الأدلة الشرعية الإسلامية»، ويرحب بتوجه الحكومة العثمانية آنذاك للأخذ بذلك[2]. ولكن بعد إعلان الدستور في (٧ ذي الحجة ١٢٩٣هـ/ ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م) والتئام البرلمان العثماني الأول في (٥ ربيع الأول ١٢٩٤/ ١٩مارس١٨٧٧م) اندلعت الحرب مع روسيا فانتهز الفرصة السلطان عبد الحميد الثاني لتجميد العمل بالدستور وحل البرلمان في (صفر ١٢٩٥هـ/ مارس ١٨٧٨م). وبعد نهاية الحرب والصلح نشر سامي مقالة قوية في جريدة «ترجمان الشرق» بتاريخ (٣٠ رجب ١٢٩٥هـ/ ٢٩ يوليو ١٨٧٨م) انطلق فيها من أن «الحرب مع روسيا قد منعتنا من أن نواصل الطريق

---

(١) Yumi Ishimaru,Shemsedin Sami Frasheri. Percues i ideve etnike ne shoqerine osmane, in Sami Frasheri: Vepra, bibliografi e kumtesa, Shkup (LogosA) 2006, p. 283

(٢) المقال منشور في: Sami Frasheri,Vepra 14, pp.173-176

الذي بدأناه»، ووصل إلى أن «الحرب قد انتهت الآن، ويجب أن نعاود العمل الذي بدأناه من حيث انتهى وأن نتابعه، وألا ننتظر من الأوروبيين أن يقدموا أو يفرضوا علينا ذلك»[١]. وفي ثنايا المقال يتضح النقد الشديد الذي وجهه سامي للحكم المطلق، الذي بقي قائمًا في الإدارة على الرغم من التجربة الدستورية/ البرلمانية العابرة، وتركيزه على الإصلاح الجذري أو «التجدّد» كما يسمّيه؛ لكي تنهض الدولة العثمانية من جديد وتقطع الطريق على أي تدخل من الخارج في أمورها الداخلية[٢].

وأما المحور الثاني المرتبط بالأول (التدخل الأوروبي وانعكاساته) فقد كان يرتبط بالموقف من الحضارة الأوروبية، الذي سيقوده لاحقًا إلى تأليف كتابه «المدنية الإسلامية». ففي عام ١٨٧٦م كتب شمس الدين سامي عن المأزق الناتج عن اكتشاف التخلف العثماني والتقدم الأوروبي، وعن الموقف المطلوب للارتقاء بالدولة العثمانية إلى مستوى الحضارة الحديثة، ويصل إلى القول: «هناك فرق كبير بين الأخذ بالمدنية عن طريق أخذ المعرفة من أوروبا وذلك برغبتنا نحن، وفي أن تتمدن على الرغم منك، وذلك بأن تخضع سياسيًّا للآخر (أوروبا) الذي توصل إلى تلك المدنية». ويضيف سامي هنا أن الدول الأوروبية «لا تهدف بالأصل إلى نشر المدنية الأوروبية في آسيا، بما في ذلك الدولة العثمانية، بل تريد

(١) المقال منشور في: *Ibid.*, pp 89- 91.

(٢) *Ibid.*, pp. 89- 91

إخضاعها فقط»[1]. ومع إدراكه للطريق التي سلكها الأوروبيون للوصول إلى تلك المدنية الحديثة (المعرفة) فقد انتهى إلى النتيجة التالية: «إننا يمكن أن نصل إلى التقدم والمدنية بواسطة الطريق التي اتبعها الأوروبيون (المعرفة)، وإذا تم ذلك يمكن للدولة العثمانية أن تكون بين الدول الأوروبية المتمدنة»[2].

ويلاحظ هنا أن شمس الدين سامي قد أخذ بمصطلح «المدنية» كمرادف للحضارة، الذي قد اشتق من Civilis، واستمر في استخدام هذا المصطلح إلى أن نشر كتابه «المدنية الإسلامية» في عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) مما جعل هذا المصطلح يروج أكثر. ومن الصعب الآن حسم من كان أول من استخدم هذا المصطلح في الدولة العثمانية، ولكن من المؤكد أن سامي هو أول من ألف كتابًا بمثل هذا العنوان والموضوع (المدنية الإسلامية) باللغة العثمانية.

وقد قاده اهتمامه بموضوع «المدنية» إلى الاهتمام باللغة، وهو المجال الذي تجلى وتبلور فيه أكثر المسار الفكري السياسي له. وقد رأينا أعلاه كيف أن شمس الدين سامي مع معرفته الواسعة بـ«المدنية الإسلامية» في الماضي و«المدنية الأوروبية الحديثة» قد انتهى إلى أن الحل لا يكمن في «نقل» المدنية الأوروبية كما هي إلى الدولة العثمانية؛ بل في اتباع الطريق ذاتها التي اتبعها الأوروبيون (المعرفة). ولأجل ذلك فقد أخذ يهتم بموضوع اللغة باعتبارها الأداة

(١) Ishimarea, Shemsedin Sami, p. 284

(٢) *Ibid*, pp. 89-91

الحاملة للمعرفة الجديدة إلى المجتمع العثماني. ولكن لكي تتمكن اللغة من القيام بهذا الدور حسب شمس الدين سامي يجب أن تكون واضحة ومفهومة للناس العاديين. ومن هنا فقد رأى سامي أن اللغة العثمانية الموجودة آنذاك لم تكن كذلك، ولأجل ذلك دخل في هذا المجال الذي انتهى فيه إلى أن يُعتبر من رواد القومية التركية الثقافية.

ومع اهتمامه المتنامي باللغة، التي خصص لها أحد مؤلفاته التي نشرها في «مكتبة الجيب» بعد «المدنية الإسلامية»، رأى أن اللغة ليست مجرد أداة لنقل المدنية الأوروبية بل هي أساس لتحديد الهوية. فقد اكتشف سامي أن الخطر يكمن في قبول المدنية الأوروبية الحديثة في المجتمع العثماني قبل أن يعي هويته، ومن هنا رأى أهمية بناء الهُوية بالاستناد إلى اللغة؛ لكي «لا يقع المجتمع تحت النير الأوروبي».

وبالاستناد إلى ذلك فقد أخذ سامي يربط بوضوح اللغة بالمدنية، وبالتحديد أن يكون لأية إثنية لغة مكتوبة لكي تتحول إلى «أمة» متمدنة. وهكذا يشرح في إحدى مقالاته في جريدة «هفته» التي نشرها في عام ١٨٨١م أن «الأقوام يمكن أن تتقدم في طريق المدنية بعد أن تبدأ في الكتابة والقراءة؛ فالقوم الذين لهم أدبهم وتاريخهم يمكن أن يكونوا أمة كبيرة». وعلى عكس ذلك فإن القوم يمكن أن يفقدوا قوميتهم إذا فُقدت لغتهم، كما حدث مع مَن ذابوا في بوتقة العربية والعرب مع اعتناق الإسلام، بينما يستشهد بالفرس الذين حافظوا على

قوميتهم مع اعتناقهم للإسلام بفضل حفاظهم على لغتهم[١].

وبالاستناد إلى ذلك فقد خطا شمس الدين سامي خطوة مهمة حين اعتبر أنه لا وجود لِلُغة عثمانية؛ لأنه لا وجود لأمة عثمانية (بالمعنى الجديد)، بل إنها «لغة تركية» لأن «اسم الأمة الكبيرة هو الأتراك الذين يعيشون في المجال الممتد من البحر الأدرياتيكي إلى الصين»[٢]. وفي هذا السياق فقد وضع شمس الدين سامي في عام ١٨٨٢م أول قاموس يشير إلى اللغة باسمها الحقيقي (قاموس فرنسي تركي) ثم «قاموس تركي فرنسي» في عام ١٨٨٥م، بينما أصدر في عام ١٩٠٠م أول قاموس يحمل هذا العنوان الذي يعبر عن واقع الحال (قاموس تركي)، الذي لا يزال يستخدم إلى اليوم، كما وضع عدة قواميس لمساعدة «الأتراك» على نقل المعرفة من المدنية الأوروبية (قاموس فرنسي تركي وقاموس تركي فرنسي... إلخ). وبهذا العمل فقد ساهم سامي بقوة في إحياء الشعور القومي عند الأتراك، بالاستناد إلى وعيهم للغتهم التي تجمعهم مع الأتراك المتحدثين بهذه اللغة خارج الدولة العثمانية؛ ولذلك فقد اعتُبر سامي بهذا المعنى من رواد القومية التركية الثقافية التي فتحت الباب لاحقًا لبروز القومية التركية السياسية مع يوسف آقجورا وغيره[٣].

---

(١) Ibid., pp. 287-288

(٢) Ibid., p. 286

(٣) Gazmend Shpuza, Sami Frasheri Midis shqiptarizmit e turkizmit, in Sami Frasheri, p.394

ومن ناحية أخرى فقد كان شمس الدين سامي قد وصل في السنوات الأخيرة إلى قناعة بأن الدولة العثمانية آيلة إلى السقوط بسبب عدم الاستجابة إلى مطالب الإصلاح السياسي والنهوض الحضاري، والتدخل الأوروبي؛ ولذلك فقد اهتم بوطنه الصغير (ألبانيا)، وألف برنامج عمل للحركة القومية السياسية بعنوان «ألبانيا: الماضي والحاضر والمستقبل». وفي هذا المؤلف المهم، الذي نشره في عام ١٨٩٩م باسم مستعار، انطلق من أنه لم يعد للألبان أمل في إنقاذ «الرجل المريض»؛ ولذلك لم يبق لهم سوى تركه يسقط وإنقاذ الذات. وخلال الفترة المتبقية من أجل الدولة العثمانية يلح شمس الدين سامي على أهمية وجود حكم محلي يعدّ ألبانيا للاستقلال مع انهيار الدولة العثمانية، ويُعطي في هذا الكتاب تصورًا مفصلاً للحكم المحلي(١).

## المدنية الإسلامية

برز الاهتمام بموضوع «المدنية» في الدولة العثمانية في سياق التحديثات أو ما عرف بـ«التنظيمات» التي تُوّجت في فرمان ١٨٥٦م؛ حيث وردت الإشارة إلى الدول الغربية باعتبارها «الملل المتمدنة». وقد فهم «التمدن» في البداية كمرادف للترقي، بينما أخذ يستخدم مصطلح «المدنية» مع الكُتّاب الرواد مثل شناسي (١٨٢٦-١٨٧١م) الذي مدح الصدر الأعظم الإصلاحي مصطفى رشيد باشا

(١) Sami Frasheri. Shqiperia c'ka qene, c'eshte e c'do te behet?, Prishtine (Rilindja) 1978, pp.79- 80

وللمزيد عن ذلك انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة، ص ٢٧-٣٠.

باعتباره «رسول المدنية»، ونامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٤م) الذي أشاد بالدول الأوروبية «التي تتمتع بأوفى قدر من المدنية وأوفى قدر من الحرية»، وأحمد مدحت الذي عقد المقارنات بين «المدنية الأوروبية» والقيم العثمانية[١]. ويلاحظ هنا أن الإشارات الأولى إلى «المدنية» كانت ترتبط أو ترادف «المدنية الأوروبية» ولم تطرح بعمق مسائل الانتقال إلى المدنية[٢].

ومن هنا فقد أخذ موضوع «المدنية» بُعدًا أعمق مع مقالات شمس الدين سامي، وصولاً إلى نشر كتابه الرائد «المدنية الإسلامية» الذي صدر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية - التي كانت تمثّل قلب العالم الإسلامي - تتعرض للضغوط والأخطار المختلفة من الداخل والخارج، وتفقد المزيد من أراضيها أمام الاحتلالات الأوروبية (الروسية والنمساوية والفرنسية والإنجليزية). وفي هذا السياق كان التهديد الحضاري يسير بموازاة التهديد السياسي والعسكري. فقد تبيّن مع هذه الاحتلالات العسكرية لأطراف العالم الإسلامي (الجزائر والبوسنة... إلخ) القوة المادية الجديدة للحضارة الأوروبية الصاعدة نحو الهيمنة على العالم، وبالتالي فقد طرح هذا الوضع إشكاليات جديدة داخل المجتمع العثماني.

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، إستانبول، مركز التاريخ والثقافة والفنون الإسلامية، ١٩٩٩م، ص ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤.

فقد كان هناك من انبهر بهذه الحضارة، ومن استسلم لها، كما كان هناك من تساءل عن أسباب تخلف المسلمين وتقدم الأوروبيين وسبل اللحاق بالتقدم الأوروبي. وقد رأينا سابقًا كيف أن شمس الدين سامي نبّه إلى أن الدول الأوروبية لا تريد من سيطرتها على العالم الإسلامي «نشر المدنية الأوروبية»، بل تريد فقط إخضاع ذلك العالم. ومن ناحية أخرى فقد نبّه سامي إلى أن هناك طريقين فقط – في هذه الحالة الإشكالية التي وجد المسلمون أنفسهم فيها – وهما: «الأخذ بالمدنية عن طريق أخذ المعرفة من أوروبا برغبتنا، والتمدن بالرغم عنا بالخضوع السياسي للآخرين الذين توصلوا إلى تلك المدنية»[1].

ومن الواضح فيما سبق أن شمس الدين سامي كان مع الخيار الأول الذي أخذت به اليابان آنذاك، أي في الاختيار الذاتي والواعي للمعرفة الأوروبية التي تمكن من النهوض والالتحاق بركب المدنية. ولأجل ذلك فقد ألف شمس الدين سامي كتابه «المدنية الإسلامية» الذي بثّ فيه بعض أفكاره، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر؛ لكي يستثير المسلمين للنهوض من جديد، واللحاق بركب المدنية الحديثة.

ومع ذلك يبدو للوهلة الأولى أن شمس الدين سامي أراد بهذا الكتاب أن يوضح الأمور الأساسية التالية:

(١) Polisi, Shkup (LogosA) 2004

١- إعلاء قيمة الإنسان والعقل؛ لأن «الإنسان يتميز عن غيره من المخلوقات بالعقل والذكاء»، ومن هنا فإن «الفوارق بين الناس لا تعود إلى اللون والشكل، بل إلى ناحية المعارف والمهارات المعرفية».

٢- التمدن قدر الإنسان؛ لأنه «هو بالذات أعطيت له القدرة، وخلقت له الظروف للمدنية من قبل الله؛ حتى يتمكن من تحسين حالته ومن أن يتمدن».

٣- الإسلام ليس دين العنف، وهو لم ينتشر بالسيف كما يدعي بعض الأوروبيين، ويثبت ذلك بكون الإسلام انتشر بواسطة التجار والتجارة في مناطق شرق إفريقيا، وجنوب شرق آسيا. وقد توسع شمس الدين سامي أكثر في هذا الجانب، وخصّص له مؤلفه باللغة العربية «همة الهمام في نشر الإسلام» الذي ننشره كملحق لهذا الكتاب.

٤- الإسلام لا يتعارض مع العلم والحقيقة والحياة؛ ولذلك فإن «المدنية الإسلامية لم تظهر بمعارضة، ولا بتضحية للحياة، كما في أوروبا حيث كانت السلطات الدينية وراء معارضة وعرقلة ظهور وتطور المدنية؛ لأن الدين الإسلامي كان يأمر بالبحث عن العلم والمعرفة والحقيقة».

٥- الارتباط الوثيق بين المدنية الإسلامية والدين الإسلامي؛ ولذلك يرى سامي أن هذا المصطلح (المدنية الإسلامية) هو الأصح وليس (المدنية العربية) الذي كان يستخدمه بعض الباحثين الأوروبيين. ومع اعترافه بأن العربية تحولت مع

انتشار الإسلام إلى «لغة علمية» للمسلمين، وبأن علماء المسلمين من الأتراك والفرس وغيرهم قد كتبوا بهذه اللغة؛ فإنه كان يحرص أيضًا على التعريف بإسهامات العلماء المسلمين بلغاتهم القومية التي تشكل كلها روافد «المدنية الإسلامية» في العالم.

٦- عدم صحة الرأي الشائع عند الأوروبيين بأن «المدنية الأوروبية الحديثة» قد ولدت بشكل مباشر من «المدنية اليونانية القديمة»؛ لأن هذا يعني أن العالم كان «يخلو من المدنية لـ ٦-٨ قرون». ولذلك يأخذ شمس الدين سامي على عاتقه في هذا الكتاب أن يعرّف بـ «المدنية الإسلامية» وإسهاماتها على المستوى العالمي في كل مجال علمي، وأن يؤكد على أن «المدنية الأوروبية الحديثة» قامت بالاستناد إلى «المدنية الإسلامية»، ولم تولد مباشرة من «المدنية اليونانية القديمة».

ومع هذه الأفكار الرئيسة التي كانت الحافز لتأليف الكتاب يمكن القول إنه لدينا أفكار أخرى مبثوثة هنا وهناك في الكتاب لا تقل أهمية - إن لم تكن الأهم - بالنسبة لمفكر تنويري كشمس الدين سامي:

١- التمدّن لا يختص بشعب، ولا يمكن لشعب أن يحتكره؛ بل هو مفتوح للجميع طالما أن أداته متاحة للجميع (العلم والمعرفة).

٢- التمدّن عند الشعوب لا يبدأ من فراغ؛ بل هو حصيلة التراكم البشري، ومن ثم فإن كل مدنية تستفيد من المدنية المجاورة، وتضيف إليها من عندها لتكتمل أكثر.

٣- المدنية اليونانية القديمة، التي كان يعتقد أنها أمّ المدنية الأوروبية الحديثة، لم تأت من فراغ بدورها؛ بل هي استفادت من المدنية المصرية القديمة ومن المدنية الفينيقية.

٤- المدنية ليست خصيصة أبدية لشعب ما، بل إن المدنية عند شعب ما يمكن أن تختل، ويتخلف ذلك الشعب عن ركاب المدنية؛ لتبرز مدنية أخرى لشعب كان أقل تمدنًا.

٥- الربط بين تطور المدنية الإسلامية والنظام السياسي، وبالتحديد تقنين العدل «حتى لا يترك لأي حاكم أن يحكم بمزاجه أو بطريقته الخاصة»، في تلميح واضح للسلطان عبد الحميد الثاني.

٦- رفع معنويات المسلمين في ذلك الوقت العصيب بإِطّلاعهم على ما وصل إليه المسلمون من مدنية على مستوى العالم بفضل اهتمامهم بالعلم والمعرفة، في الوقت الذي كان ينبهر فيه البعض بالمدنية الأوروبية الحديثة التي أخذت تسيطر على العالم بآلتها العسكرية، وتأكيده على أن المسلمين يمكن بذلك الطريق نفسه أن يستعيدوا مشاركتهم في المدنية الحديثة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من الطبيعي أن يتساءل شمس الدين سامي عن أسباب تخلف المسلمين عن ركب المدنية، وهو يعد القارئ في خاتمة كتابه هذا أن يخصص لذلك مؤلفًا مستقلاً بعنوان «الشعوب الإسلامية: الماضي والحاضر والمستقبل»، وأن يتناوله كذلك في مؤلَّف آخر بعنوان «المدنية الأوروبية». ولكن يبدو للأسف أن سامي لم يتمكن من إنجاز الكتاب الأول ولا الثاني؛ حيث إنهما لم ينشرا في حياة المؤلف، كما أنهما لا يوجدان ضمن مخطوطاته التي لم تنشر بعد.

في كتاب «المدنية الإسلامية» تبرز الثقافة الموسوعية التي كان يتميز بها شمس الدين سامي، وكذلك الأسلوب المتأثر بالصحافة التي ارتبط بها طويلاً، وجعلته قلمًا مؤثرًا في الرأي العام العثماني الجديد.

لقد سبق القول إن سامي أتقن اللغة العربية، وتضلع في تراث العربية وتاريخ العرب والمسلمين، وهو ما يبدو في مؤلفاته الريادية المختلفة. فقد نشر في عام ١٨٧٤م كتابه «تاريخ طرابلس الغرب»، ونشر في عام ١٨٧٥م مسرحيته «سيد يحيى» التي يتحدث فيها عن أوضاع المسلمين في الأندلس بعد غروب سلطانهم، بينما أصدر في عام ١٨٨٥م باللغة العربية «همة الهمام في نشر الإسلام»، ثم نشر في عام ١٨٨٧م «القواعد الصرفية العربية» و«القواعد النحوية العربية»، وفي عام ١٨٨٩م «قاموس عربي تركي»، ليصدر أخيرًا كتابه الرائد «منتخبات من أشعار علي بن أبي طالب: شرح وترجمة»... إلخ.

ولا يبدو في مؤلفاته المذكورة ومقالاته الأخرى تضلعه في اللغة العربية فقط وإنما رغبته أيضًا في مساعدة الأتراك والألبان على تعلم وإتقان اللغة العربية، والاطلاع على الأدب والتاريخ العربي بالاستناد إلى المصادر الرئيسة، كما أن موسوعته التاريخية الجغرافية «قاموس الأعلام» تشير بوضوح إلى مدى معرفته بالمصادر المختلفة التركية والعربية والأوروبية.

وفيما يتعلق بكتابه «المدنية الإسلامية» بالذات يبدو بوضوح أن المؤلف قد استفاد من مصادر عربية يسميها بالاسم، ويعطي رأيه فيها كرحلة ابن بطوطة وغيره، ومن ترجمات تركية لبعض المصادر العربية التي يذكرها أيضًا كمقدمة ابن خلدون، بالإضافة إلى الدراسات الأوروبية الحديثة. ويتضح في مؤلفات وترجمات شمس الدين سامي مدى معرفته ومتابعته للدراسات الأوروبية الحديثة، التي استفاد منها في تأليف سلسلة كتبه التنويرية عن «الأرض» و«السماء» و«الإنسان» وغيرها، وفي موسوعته التاريخية الجغرافية «قاموس الأعلام»، وهو ما يبدو أيضًا في «المدنية الإسلامية». فاطلاع سامي الواسع على ما يصدر في اللغات الأوروبية، وخصوصًا الفرنسية، حفّزه على تأليف كتابه «المدنية الإسلامية»، كما دفعه إلى وعد القراء بالكتاب اللاحق له «المدنية الأوروبية» الذي لم يصل إلينا للأسف.

ففي «المدنية الإسلامية» تبدو شخصية سامي الموضوعية بالاستناد إلى اطلاعه على ما يصدر في اللغات الأوروبية حول هذا الموضوع. فهو ينتقد من ناحية تعصب وجهل بعض الأوروبيين، الذين يؤكدون على أن المدنية الأوروبية

الحديثة قد وُلدت بشكل مباشر من المدنية اليونانية القديمة، وبالتحديد بفضل علماء القسطنطينية الذين هاجروا إلى إيطاليا بعد الفتح العثماني لها في عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م). ومن ناحية أخرى يقرّ سامي بأهمية ما قام به هؤلاء العلماء، ولكنه يخصص كتابه هذا ليثبت أن العالم لم يكن خاليًا من المدنية ما بين المدنية اليونانية القديمة والمدنية الأوروبية الحديثة؛ بل إن المدنية الأوروبية الحديثة ولدت بالاستناد إلى المدنية الإسلامية، مستشهدًا في ذلك بكتابات من يسميهم «الأوروبيين الواقعيين».

ولكن شمس الدين سامي في هذا الكتاب (المدنية الإسلامية) كما في الكتب الأخرى التي نشرها لتبسيط المعرفة في «مكتبة الجيب» كان متأثرًا أيضًا بأسلوبه الصحفي. فقد بدأ سامي عمله في الصحافة، واشتهر بها على مستوى الدولة العثمانية، كما اشتهر بأعماله الروائية والمسرحية، وانهمك في الإعداد لمؤلفاته الخمسة عشر في «مكتبة الجيب»؛ ولذلك يبدو كما لو أن سامي كان في سباق مع الوقت لتأليف ما يريد أن يوصله إلى الجمهور، قبل أن يستسلم للمرض ويموت مبكرًا في عام (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م). ومن هنا يبدو في هذا الكتاب (المدنية الإسلامية) بعض الهنات والأخطاء، التي سنشير إليها في الهوامش، والتي تؤكد أن سامي لم يكن يراجع ويدقق ما كان يكتبه.

وبغض النظر عن ذلك فقد جاء صدور كتاب «المدنية الإسلامية» خلال عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) في وقته؛ ليشحن القراء – في وقت عصيب – بالأمل

في نهضة جديدة. ويكفي كدليل على الصدى الذي تركه الكتاب أنه قد صدر في طبعة جديدة في عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م)، كما صدر بعد حوالي مائة سنة بالتركية في الحروف اللاتينية (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، وصدر في عدة طبعات بالألبانية (١٩٩٩، ٢٠٠٢ و ٢٠٠٤ )؛ مما يؤكد على استمرار الاهتمام به إلى الآن.

وفيما يتعلق باللغة الألبانية بالتحديد فقد صدرت الطبعة الأولى في بريشتينا (كوسوفا) خلال عام ١٩٩٩م بترجمة الدكتور مهدي بوليتسي، أستاذ اللغة التركية وآدابها في قسم الاستشراق بجامعة بريشتينا، وذلك ضمن الطبعة الجديدة من «الأعمال المختارة» لشمس الدين سامي التي كانت تصدرها في اللغة الألبانية دار «ريليندا». وقد صدرت الطبعة الثانية خلال عام ٢٠٠٢ في سكوبيه (مكدونيا) بدار نشر «لوغوس»، التي أعادت إصدارها في عام ٢٠٠٤ ضمن «الأعمال المختارة» التي صدرت هذه المرة في عشرين مجلدًا، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها لترجمة الكتاب إلى العربية[١].

وقد كان لهذه الطبعات من الكتاب صداها[٢] وأهميتها، من حيث إنها قدمت صورة موضوعية أكثر عن شمس الدين سامي في العالم الألباني. فقد كانت الأنظمة الشيوعية السابقة في ألبانيا ويوغسلافيا، التي كانت تضم آنذاك

(١) Ishimareu, Shemsedin Sami,p.284.

(٢) Sami Frasheri,Qytetrimi islam, Rilindja (Prishtine) 20.01.2000; Ragip Sylaj, Dituria-force motorike per levizjen e nje shoqerie,Zeri (Prishtine)12.12.2002.

كوسوفا ومقدونيا، تركز على إبراز شمس الدين سامي كمفكر قومي، أو ككاتب موسوعي، مع إغفال تام لمؤلفاته التي تتعلق بالإسلام. ولكن مع التحولات الديمقراطية التي جرت في أوروبا الشرقية صدر كثير من مؤلفات سامي لأول مرة، ومنها «المدنية الإسلامية» و«همة الهمام في نشر الإسلام»؛ مما جعله يصبح معلمًا في الدراسات الإسلامية أيضًا، وليس في الدراسات التركية والألبانية فقط[(١)].

وأخيرًا فقد وجدنا من المناسب أن ننشر كملحق لـ «المدنية الإسلامية» الكتيّب الذي أصدره شمس الدين سامي في عام (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م) باللغة العربية تحت عنوان «همة الهمام في نشر الإسلام»؛ وهو العمل الذي ألفه بالعربية ولم يُعَد إصداره منذ ذلك الحين، وذلك لكونه يوضّح مباشرة بالعربية بعض الأفكار التي أوردها بالتركية في «المدنية الإسلامية»، بالإضافة إلى بعض الأفكار الأخرى التي تفيد بدورها في التعرف على شخصية مؤلفها.

---

(١) Nexhat S. Ibrahimi, Aspekte te kontributit te Sami Frasheri ne islamologji, in Sami Frasheri, pp.317- 343

# ببليوغرافيـــا

## مؤلفات شمس الدين سامي فراشري المطبوعة

### أ- في الألبانية

- قواعد اللغة الألبانية، بوخارست، ١٨٨٦.
- كتاب تعليم اللغة الألبانية، بوخارست، ١٨٨٨.
- الجغرافية، بوخارست، ١٨٨٨.
- ألبانيا: الماضي والحاضر والمستقبل، بوخارست، ١٨٩٩.

### ب - في العربية

- همة الهمام في نشر الإسلام، إستانبول، ١٨٨٥.

### ج - في التركية

- عشق طلعت وفتنة (رواية)، إستانبول، ١٨٧٢.
- تاريخ طرابلس الغرب، طرابلس الغرب، ١٨٧٤.
- بيسا أو عهد الوفاء (مسرحية)، إستانبول، ١٨٧٥.
- سيّد يحيى (مسرحية)، إستانبول، ١٨٧٥.
- جاوة (مسرحية)، إستانبول، ١٨٧٦.

- المدنية الإسلامية، إستانبول، ١٨٧٩.
- الأساطير، إستانبول، ١٨٧٩.
- النساء، إستانبول، ١٨٧٩.
- السماء، إستانبول، ١٨٧٩.
- الأرض، إستانبول، ١٨٧٩.
- الإنسان، إستانبول، ١٨٧٩.
- أمثال، إستانبول، ١٨٧٩ .
- قاموس فرنسي تركي، إستانبول، ١٨٨٢.
- لطائف، إستانبول، ١٨٨٣.
- الإنسان مجددًا، إستانبول، ١٨٨٥.
- قاموس تركي فرنسي، إستانبول، ١٨٨٥.
- منتخبات فارسية، إستانبول، ١٨٨٥.
- اللغة، إستانبول، ١٨٨٦.
- أصول التنقيط والترتيب، إستانبول، ١٨٨٦.
- قاموس الجيب فرنسي تركي، إستانبول، ١٨٨٦
- كتاب تعليم اللغة التركية، إستانبول، ١٨٨٧.
- القواعد النحوية العربية، إستانبول، ١٨٨٧.
- القواعد الصرفية العربية، إستانبول، ١٨٨٧.
- تصريفات عربية، إستانبول، ١٨٨٧.

- قاموس عربي تركي، إستانبول، ١٨٨٩ .
- مختارات من أشعار باقي، إستانبول، ١٨٨٩ .
- قاموس الأعلام، إستانبول، ١٨٨٩ – ١٨٩٨ .
- كتاب تعليم اللغة التركية حسب الأصول الجديدة، إستانبول، ١٨٩١ .
- قواعد اللغة التركية حسب الأصول الجديدة، إستانبول، ١٨٩١ .
- قاموس تركي، إستانبول، ١٩٠٠ .
- مختارات من أشعار علي بن أبي طالب، إستانبول، ١٩٠٠ .
- تطبيقات عربية، إستانبول، ١٩٠٠ .
- بدائع أدبية (مقالات)، إستانبول، ١٩١٠ .

### د – ترجمات عن الفرنسية

- تاريخ فرنسا الموجز، إستانبول، ١٨٧٢ .
- الرقيب العجوز (مسرحية) إستانبول، ١٨٧٣ .
- مذكرات الشيطان، إستانبول، ١٨٨٠ .
- البؤساء، إستانبول، ١٨٨١ .
- روبنسون، إستانبول، ١٨٨٥ .

# المدنية الإسلامية

تأليف

**شمس الدين سامي فراشري**

ترجمة وتقديم

**محمد م. الأرناؤوط**

طُبع لأول مرة في عام (١٢٩٦ هـ/١٨٧٩م).

## [البشر والقابلية للتمدن][1]

كوكب الأرض ما هو إلا جزء صغير من الأمور الكثيرة التي خلقتْها قدرة الله. ونظرًا لأننا نعيش على الأرض، ولكوننا مرتبطين بها بشكل وثيق؛ فإن اهتمامنا بكوكب الأرض يعادل اهتمامنا بالفضاء كله وربما يفوقه. ومع أن كوكب الأرض موطن للكثير من المخلوقات فإن الإنسان يأتي على رأسها لأنه يمتلك العقل والذكاء. ولأجل ذلك يبدو من المفهوم في حد ذاته أنه لم يعد هناك مجال واسع لأهمية الحيوانات الأخرى والاهتمام بها. ولذلك يبدو من الطبيعي أن يعتبر كوكب الأرض موطن الحياة الإنسانية في الدرجة الأولى.

وانطلاقًا من اعتبارنا لأنفسنا في مركز سامٍ في هذا الكوكب فلنركّز اهتمامنا على البشر الذين يعيشون على هذا الكوكب الأرضي، وعلى الشعوب التي تسكنه. وبين هؤلاء البشر سنلاحظ مع ذلك وجود فوارق كبيرة إلى حد أن بعضهم يصعب تمييزه عن الحيوانات. وحين أتحدث عن الفوارق هنا، لا أقصد

(١) لم يضع المؤلف عناوين لكثير من موضوعات هذا الكتاب، واكتفى بالترقيم فقط، وارتأينا وضع عناوين للتيسير والتوضيح ، ومن ثم فالعناوين التي بين قوسين معقوفين [ ] خاصة بهذه الطبعة.

اللون أو الشكل أو اللباس، حيث إن الفرق بين الإنسان الأسود والإنسان الأبيض هو كالفرق بين الإنسان ذي الشعر الأسود والإنسان ذي الشعر الأبيض. فلا يجب هنا أن تقوم الفوارق بين الناس على هذا الأساس. إن الفوارق التي أتحدث عنها هي الفوارق من الناحية الفكرية ومن ناحية المعارف والمهارات المعرفية. فما يميز الإنسان عن الحيوان هو درجة وقوة العقل. وفي هذا الإطار بقدر ما يتميز الإنسان عن الحيوان بدرجة وقوة العقل الكبيرة لديه، فإنه يقترب من الحيوانات حين تتراجع لديه درجة وقوة العقل.

إن هذا التمييز والتقسيم الذي نراه بين البشر سنتعرف عليه من ناحية مكانية وزمانية، أي بالتعرف على تاريخ الإنسانية. فإذا ألقينا نظرة على الجغرافيا فسنرى في فرنسا بشرًا متمدنين، وفي بورينو بشرًا متوحشين، وإذا عدنا للتاريخ وجدنا في فرنسا قبل ألفي عام شعوبًا متوحشة وهي اليوم متمدنة، بينما كان لدينا في حوض دجلة شعوب، وهي الآن قبائل بدوية.

البشر لا يتميزون فيما بينهم من حيث الطبيعة أو كمخلوقات؛ إذ إن هذا التمييز ليس ضروريًا من الناحية المكانية أو من الناحية الزمانية. ولو كان هذا التمييز ضروريًا من الناحية المكانية لوجب على شعوب فرنسا أن تبقى متنقلة. فنحن نعرف الآن أنه في فرنسا - التي يسكنها شعب متمدن - كانت تعيش فيها أقوام متنقلة، بينما في حوض دجلة الذي تسكنه الآن أقوام متنقلة كان يسكنه قبل ألفي عام شعب متمدن. ولو أن هذا التمييز كان ضروريًا من الناحية

التاريخية لوجب أن يكون كل البشر والشعوب الذين كانوا يعيشون في حالة واحدة أن يكونوا الآن في حالة واحدة أيضًا. ولكن هنا نرى العكس كذلك.

إن ما يقوم وراء هذا التمييز هو ظرف مميز يأتي ويذهب، ألا وهو المَدَنية. وحين يقال إن الإنسان متمدّن بطبيعته فالمقصود أن تكون المدنية مرتبطة بطبيعة الإنسان، مع عدم الإلحاح على إمكانية البحث وإثبات أن الإنسان وُلد متمدنًا وخُلق متمدنًا. وفي الحقيقة إن الإنسان ولد في حالة متوحشة، كالحيوانات الأخرى تقريبًا، ولكنه هو بالذات أُعطيت له القدرة، وهُيّئتْ له الظروف للمدنية من قبل الله حتى يتمكن من تحسين حالته ومن أن يتمدن.

لقد خُلق الإنسان في حالة متوحشة، ولكنه لم يخلق لكي يبقى على هذه الحالة. وكما هو الأمر مع غالبية الحيوانات التي لها وظيفة ما فإن البشر يمارسون أنشطة ومهام كبيرة. وكما أن النحلة التي تجمع رحيق الأزهار تتفانى في عملها، وبالتحديد في نشاطها ومهمتها لإنتاج العسل، فالإنسان أيضًا بمعرفته لجوهر وحقيقة المواد الموجودة في الكون وفي كوكب الأرض بشكل خاص، عليه أن ينمّيها وأن يكملها وأن يطورها، لخلق وضمان الحياة الهنية والراحة للإنسانية.

إن الإنسان يحمل في حد ذاته السلاح واللباس والدفاع عن ذاته لكي يحمي نفسه من أي حيوان ومن كل خطر أو مشكلة. لقد خُلق الإنسان عاريًا ومجردًا من أي سلاح طبيعي، ولكنه خُلق ولديه قوة لا يحوزها أحد آخر، ألا

وهي قوة العقل والذكاء، التي تمكنه من اكتشاف وصنع كل لباس وسلاح ودفاع عن النفس. ففي هذا الإطار يعمد الإنسان إلى استخدام عقله وذكائه. وأولئك الذين يفكرون ويخترعون الأشياء التي يحتاجون إليها، وأولئك الذين يمارسون ويطورون قوتهم العقلية أكثر، يتميزون عن الحيوانات أكثر من غيرهم. أما أولئك الذين لا يقدّرون هذه المهام الطبيعية، مع أنهم يعيشون في حالة تُشابه الإنسان، فهم يبقون في عري الطبيعة ويبقون في مستوى الحيوانات الأخرى، ويستمرون في الحياة بالأخطار والمصاعب أكثر من الآخرين.

ومهما يكن الأمر، فقد كان هناك الكثير من البشر الذين لم يستغلوا بالعقل والذكاء هذه الثروة الطبيعية الكبرى كما يجب، وبهذا فهم لم يخدموا أنفسهم ولا مجتمعهم. ومع ذلك فقد وُجد بين البشر الكثير من الأمور المفيدة، التي جاءت بالصدفة أولاً ثم بالابتكار، ثم جاء الكثير من الناس الذين كشفوا عن الكثير من الحقائق. كان الأمر يبدأ باكتشاف أحدهم لحقيقة من كنز الحقائق، ثم يأتي آخر من بعده يتعرّف على تلك الحقيقة، ويكتشف باستخدامه لعقله حقيقة أخرى من ذلك الكنز. وحين كان يأتي أحدهم ويتوصل إلى اكتشاف ما يفيد الإنسانية، يأتي آخر من بعده لتطوير ذلك أو لاكتشاف آخر.

وبهذا الشكل، أي خطوة بعد خطوة، تطور عقل الإنسان، وكلما تطور عقله ابتعد أكثر عن الحيوانات. وحسب القدرة التي منحت له فقد توصل إلى حالة أخرى، أي أنه خرج من حالة التوحش وأخذ في التمدّن.

ولو كان البشر يعيشون في مكان واحد ويتحدثون بلسان واحد ويتمتعون بعلاقات جيدة فيما بينهم، وخاصة إذا لم تكن هناك عداوة بينهم، فإنهم كانوا سيسيرون في طريق التمدن، وسيصلون بسرعة إلى الهدف؛ أي إلى التطور. ولكن نظرًا لأنه في تلك الأزمنة القديمة كانت هناك عداوات وانقسامات بين الناس أكثر من الآن، ونظرًا لأنه لم يكن هناك معرفة بالشعوب الأخرى التي كانت تعيش بعيدة، ونظرًا لأن الناس كان لها أديان ولغات مختلفة، ونظرًا لأن الناس كان لديها مصاعب في التواصل فيما بينها؛ فإن الاكتشافات والاختراعات التي كان يتوصل إليها شعب ما، كانت تبقى في إطار ذلك الشعب وكانت نادرًا ما تصل أو تصل متأخرة إلى الشعوب الأخرى المجاورة. وقد ساهمت بعض الاكتشافات والاختراعات في إذكاء وإكمال عقول الناس وذكائهم، حيث أدت إلى تطويرها أو إلى اختراع غيرها. ومع ذلك فقد كان يحدث أن أحد الشعوب كان يتقدم ويتمدن بينما كان شعب مجاور له يبقى في الحالة المتوحشة.

ولكن كان يحدث أيضًا أن الشعب الذي كان يتمدن سرعان ما يخضع لشر ما ويفقد مدنيته. وفي هذه الحالة كان هذا الشعب بعد تمزقه وتلاشيه يتلاشى ما لديه من مدنية، أو ينتقل إلى من يرثه أو إلى جيرانه.

وبعبارة أخرى، إن الفرق بين الناس يكمن في ظهور هذه المدنية، ومع الأخذ بعين الاعتبار العامل المكاني والزماني فإن هذا الفرق بين الناس يكمن وراء هذا الكتاب وما فيه من شرح وتعليق.

## [تواصل التمدن في التاريخ العالمي]

ليس الهدف هنا طرح مسألة الشعوب، لأن هذا خارج الموضوع، كما هو الأمر مع الحيثيين والآشوريين والميديين والهنود والمصريين واليونان، الذين كانت لهم مَدَنِية في وقت مبكر وخدموا بذلك الإنسانية، ولاحقًا الشعوب الحديثة في أوروبا، ولكن نريد أن نثبت أن العالم لم يكن دون مدنية في القرون الثمانية أو العشرة الأخيرة، وبالتحديد بين المدنية اليونانية التي كانت الأحدث في تلك المدنيات وبين المدنية الأوروبية الحالية.

لقد أكّد الأوروبيون إلى وقت متأخر أن المدنية الحالية قد ولدت بشكل مباشر من المدنية اليونانية القديمة، وأن من كان وراء بناء هذه المدنية في أوروبا جماعة من العلماء اليونان الذين هاجروا من القسطنطينية واستقروا في إيطاليا، حيث أخذوا معهم المؤلفات وترجموها ودرّسوا هناك. ولا يزال لدينا إلى اليوم الكثير ممن يأخذون بهذا الرأي.

ولسنا ممن ينفون أهمية وقوة الحضارة اليونانية، ولسنا من أولئك الذين يؤكدون أن المؤلفات اليونانية التي كان يدرسها العلماء اليونان الذين انتقلوا من القسطنطينية إلى إيطاليا لم تؤثر في يقظة أوروبا. ولكن لا يمكن لنا أبدًا أن نتفق مع حقيقة أن كوكب الأرض بقي خاليًا ودون مَدَنِية منذ أن استرخت المدنية اليونانية القديمة وإلى أن استيقظت ونهضت المدنية الأوروبية، أي أن كل مكان كان غارقًا في الظلمات والجهل والوحشية خلال تلك القرون الخالية، كما لا يمكن أن نتفق مع حقيقة أن المدنية الأوروبية الحديثة هي حصيلة مؤلفات العلماء اليونان الذين فرّوا من القسطنطينية.

إن هذا الأمر لا يمكن أن نجده أبدًا إذا عمدنا إلى البحث في تاريخ الإنسانية منذ بداياتها، التاريخ الذي يقوم على المبادئ الصحيحة والمتفق عليها، لأن التاريخ يرتبط بشكل وثيق بمنجزات وآثار المدنية. فالمدنيات التي ظهرت على كوكب الأرض منذ أقدم الأزمنة أدت إلى أن تكتب تاريخها بشكل أو بآخر. وهكذا فإن المرحلة المبكرة للإنسانية، مرحلة التوحش والتنقل، هي غير معروفة بالنسبة لنا، على حين أن المراحل التي مرّت فيها الإنسانية بمدنية معروفة إلى حد ما بالنسبة لنا كما عُرِفَت أحوال الشعوب التي توصلت إلى مدنية. وحين نطّلع على تاريخ الإنسانية نفهم أن المدنية، منذ ظهورها الأول وإلى تلاشي مدنية اليونان، كانت تظهر لدى شعب أو لدى عدة شعوب، أي أن كوكب الأرض لم يكن يخلو من مدنية. صحيح أن المدنية ابتعدت عدة قرون عن اليونان ولكنها

لم تصل عند بقية الأوروبيين. وإذا انتبهنا إلى ظروف وتواريخ القرون، منذ بداية سقوط المدنية اليونانية وإلى بداية اليقظة الأوروبية، والكثير من المؤلفات التي تتحدث عن المدنيات لتوصلنا إلى أن تلك القرون لم تكن دون مدنية أو خالية من المدنية. بل على العكس سنفهم أن تلك القرون كانت مزدانة بمدنية أكثر تطورًا واكتمالاً من المدنية السابقة، ألا وهي المدنية الإسلامية.

إن الشعب الذي يعيش في حالة متوحشة ومتنقلة لا يمكن له أن يأخذ ويتقبل المنجزات المدنية لشعب متمدن. أما الشعب المتمدن الذي يأخذ ويتقبل المنجزات المدنية لشعب متمدن فإنه يمكن له أن يطور أكثر تلك المنجزات المدنية بالاستناد إلى ما لديه من معارف. وبهذا الشكل فإن المدنية اللاحقة ستكون دائمًا أكثر اكتمالاً وسموًّا من المدنية السابقة. ولذلك كما أن المدنية اليونانية أكثر اكتمالاً وسموًّا من المدنية المصرية، والمدنية الفينيقية أكثر اكتمالاً وسموًّا من مدنيات الشعوب الآسيوية الأخرى، فإن المدنية الإسلامية هي دون شك أكثر اكتمالاً وسموًّا من المدنية اليونانية. إن هذا الأمر، السبق والاكتمال، يبدو من خلال المقارنة بشكل عام.

إن هذه المنجزات للمدنية الإسلامية لم تتلاش. ونظرًا لأن هذه المنجزات لاتزال موجودة، ونظرًا لأن غالبية هذه المنجزات توجد بين يدي الأوروبيين فإن الأوروبيين الواقعيين لا ينفون ذلك بل يثبتون ويقرّون أن المدنية الأوروبية قد ولدت بشكل مباشر من المدنية الإسلامية. فمن الخطأ الرأي الشائع حتى الآن

بأن المدنية الأوروبية قد وُلدت بشكل مباشر من المدنية اليونانية. ولذلك فإن عدم ذكرهم للمدنية الإسلامية خطأ يستند على ادعاء أن الأوروبيين يعرفون إلى حد ما تراث اليونانيين القدماء ولغتهم، على حين أن جمهور الأوروبيين غير مطلع على التراث الإسلامي ولغته.

لماذا تأخر الأوروبيون في فهم هذه الحقيقة؟ هل لأن هذا الأمر لا يمكن أن ينسب إلى تعصبهم؟ يجب ألا ننسى هنا أن العلماء الأوروبيين هم الذين كشفوا في هذه الأيام عن مدى تقدم المدنية الإسلامية، وعن أن المدنية الحالية (الأوروبية) قد وُلدت من تلك المدنية (الإسلامية)، وعن الكثير من منجزات أسلافنا التي لم نكن نعرفها.

لقد ترجم الأوروبيون قبل ذلك الكثير من المؤلفات العلمية والفلسفية لعلماء المسلمين إلى اللغة اللاتينية، التي كانت اللغة العلمية الرئيسة لهم في أوروبا. ومع أن تلك المؤلفات أثارت حينها يقظة أوروبا إلا أن تلك المؤلفات لم تصل إلى عوام الناس. ونظرًا لأن أولئك لم يتمكنوا من الاطلاع على تلك المؤلفات ومعرفة ما فيها فإنهم كانوا غير عارفين بوجودها وليس فقط بمضمونها ومستواها. وحين تمكن العلماء (الأوروبيون) الذين يعرفون اللغات الإسلامية من الوصول إلى كل جزء في أوروبا، فوجئوا هناك بما شاهدوه من منجزات المدنية الإسلامية. وهكذا فقد ترجموا تلك المؤلفات إلى لغاتهم ووضعوها تحت التصرف العام. وحينها فقط أدرك كل واحد منهم ما كان يوجد من أفكار غير

صحيحة عن الشعوب الإسلامية التي كان مصدرها الجهل والتعصب. وقام كل واحد منهم بتوضيح طابع ومضمون وجوهر ومستوى المدنية الإسلامية، وأوضح أن المدنية الأوروبية الحالية ولدت بشكل مباشر من المدنية الإسلامية. وفي هذه الأيام أصبحت هذه حقيقة بالاستناد إلى التاريخ، ولم تعد تترك أي مجال للشك والتردد والرفض.

ونظرًا لأنه لا توجد مؤلفات تثمّن إسهام الشعوب المتمدنة لآسيا القديمة، فقد أصبحت المدنية اليونانية تعتبر المدنية الأكثر سموًّا. ومع أنه لا خلاف في حقيقة أن العلماء اليونان كانوا المعلمين الأوائل في العالم، إلا أننا اليوم نجد أن كل الواقعيين الأوروبيين يتفقون على أن المدرسة الأولى للشعوب الأوروبية كانت الأندلس، حين كانت بيد المسلمين، والتي كان معلموها من المسلمين.



## [«مدنية عربية» أم «مدنية إسلامية»؟]

يطلق بعض العلماء الأوروبيين على المدنية الإسلامية اسم «المدنية العربية» إلا أن الكثير من العلماء الواقعيين الأوروبيين يثبتون أن هذا الاسم ليس صحيحًا. فمع أن غالبية مؤلفات المدنية الإسلامية باللغة العربية إلا أن اللغة العربية في ذلك الوقت، كما هي اليوم إلى حد ما، كانت اللغة العلمية لكل الشعوب الإسلامية، لدرجة أن علماء إستانبول حتى القرن الماضي كانوا يكتبون معظم مؤلفاتهم العلمية والأدبية باللغة العربية. ويشهد على ذلك مؤلفات ابن كمال[1] وأبي السعود[2]

---

(١) أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا (٨٧٣-٩٤٠هـ/ ١٤٦٨-١٥٣٤م) عالم معروف في الفقه واللغة والتاريخ. برز أولاً في التدريس بمدارس أدرنه وسكوبيه بالبلقان ثم عيّنه السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) قاضيًا لعسكر الأناضول وأخذه معه خلال حملته لفتح مصر في ١٥١٧. وقد ترجم خلال إقامته في مصر بأمر من السلطان سليم كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي. من أشهر مؤلفاته التي قاربت المئة «رسالة في تعريب الكلمة الأعجمية» الذي صدر محققًا عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق ١٩٩١)، و«إيضاح الإصلاح في فقه الإمام أبي حنيفة» الذي صدر محققًا مؤخرًا في بيروت (دار الكتب العلمية ٢٠٠٧) .. إلخ. وقد نوقشت في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام ١٩٧٧ رسالة دكتوراه بعنوان «ابن كمال باشا وجهوده في اللغة والنحو مع تحقيق كتاب أسرار النحو».

(٢) أبو السعود أفندي (٨٩٦-٩٨٢هـ/١٤٩١-١٥٧٤م) من أشهر علماء الدولة العثمانية ومن أشهر شيوخ الإسلام فيها. بدأ بالتدريس في إستانبول ثم انتقل للقضاء في بورصة إلى أن أصبح قاضيًا للعسكر ثم شيخًا للإسلام في عهد سليمان القانوني. اشتهر بفتاواه التي جُمعت، وبمشاركته في القوانين التي وضعت للولايات خلال عهد السلطان سليمان القانوني، كما اشتهر بمؤلفاته التي اشتملت على تفسير القرآن والفقه والشعر في التركية والعربية والفارسية. للمزيد: أحمد صدقي شقيرات، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، ج ١، إربد ٢٠٠٢، ص ٣٨٦-٤٠١.

وملا كوراني[1] وكاتب جلبي[2] وراغب باشا[3] وغيرهم.

وكما كانت اللغة اللاتينية في ذلك الوقت اللغة العلمية والأدبية لكل شعوب أوروبا، فقد كانت اللغة العربية اللغة العلمية والأدبية العامة لكل الشعوب الإسلامية. أما الفارسية والتركية فقد كانتا تستخدمان في مواضيع محددة تتعلق بالشعر والتراث الشعبي، بينما كان العلماء الفرس والأتراك حين يؤلفون أعمالهم العلمية يكتبونها باللغة العربية كغيرهم من علماء المسلمين.

---

(١) ملا كوراني (٨١٩-٨٩٣هـ/١٤١٦-١٤٨٨م) من علماء الدولة العثمانية وشيوخ الإسلام فيها الذين كانت له مكانة في مصر أيضًا. فقد ارتحل في شبابه إلى القاهرة لتحصيل العلوم الشرعية وأخذ الإجازة في الحديث من ابن حجر، وحظي بمكانة لدى السلطان المملوكي الظاهر جقمق. بعد عودته إلى الدولة العثمانية في عهد مراد الثاني أوكل إليه تعليم ولده محمد الذي أصبح فيما بعد السلطان محمد الفاتح. وبعد تولي السلطان محمد للحكم عيّنه قاضيًا للعسكر وشارك في فتح القسطنطينية ثم عيّن شيخًا للإسلام في ١٤٨٠م وبقي في هذا المنصب حتى وفاته في ١٤٨٨م. وقد ترك مجموعة من المؤلفات أهمها تفسير القرآن وشرح صحيح البخاري ... إلخ. للمزيد: شقيرات، تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام، ج ١، ص ٣٢٨-٣٣٣.

(٢) مصطفى بن عبد الله (١٠١٧-١٠٦٧هـ/١٦٠٩-١٦٥٧م) المعروف باسم كاتب جلبي أو حاجي خليفة، كما يُعرف عند أكثر العرب؛ عالم عثماني معروف في الفلك والجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والسياسة. من أشهر مؤلفاته التي قاربت العشرين في التركية والعربية «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» بالعربية في ستة مجلدات، ولا يستغنى عنه حتى الآن وأطلس «جهاننامه» (وصف العالم) الذي أعيدت طباعته مؤخرًا في استنبول. للمزيد عنه انظر مقالتنا: تركيا تحتفي بكاتب جلبي أو حاجي خليفة وتعيد نشر «وصف العالم»، جريدة «الحياة» ٢٠٠٨/١٢/١٣م.

(٣) محمد راغب باشا (١١١٠- ١١٧٦هـ/ ١٦٩٨- ١٧٦٣م) عالم ورجل دولة عثماني معروف. شغل منصب والي مصر لمدة خمس سنوات (١٧٤٤-١٧٤٩م)، وعيّن بعدها صدرًا أعظم في ١٧٥٦م، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته في ١٧٦٩م. عرف عن راغب باشا اهتمامه بالعلم والأدب وجمع المخطوطات النادرة، حيث أنشأ قبل وفاته مكتبة معروفة باستنبول جمع فيها ذخائر المخطوطات. وقد ترك مؤلفات متنوعة تدل على سعة علمه وثقافته، منها ديوان شعره الذي طبع في بولاق ١٨٣٦م و«سفينة الراغب ودفينة المطالب» الذي طبع في القاهرة ١٨٦٥م ... إلخ. للمزيد عنه وعن مؤلفاته: محمود السيد دغيم، مكتبة الصدر الأعظم محمد راغب باشا، جريدة «الحياة» ٢٠١٠/٨/٢٩م.

إن أولئك الذين يرغبون في إطلاق اسم «المدنية العربية» على المدنية الإسلامية ينسون أن غالبية العلماء الذين يعتبرونهم من العلماء العرب ليسوا من العرب، بل هم من الأتراك والفرس والشعوب الأخرى. ومن المؤكد أن هؤلاء سيغيّرون رأيهم عندما يعرفون أن أعظم علماء المسلمين ليسوا من العرب. فعلى سبيل المثال: ابن سينا فارسي، والفارابي تركي، وصلاح الدين الأيوبي - الذي أثبت بنضجه الكبير أن المدنية الإسلامية هي من ذلك النوع الذي أثار اهتمام الأوروبيين - من الأكراد. ولا يوجد شك في أن أولئك سيتفقون معنا في الرأي بأن تلك المدنية مدنية إسلامية، وبأن كل الشعوب الإسلامية مشاركة في تلك المدنية.

ففي عصر ازدهار المدنية الإسلامية كانت كل الشعوب الإسلامية التي تعيش من حدود الهند والصين وسيبريا وحتى شواطئ المحيط الأطلسي، أي في آسيا وإفريقيا وأوروبا، قد تنوّرت عقولها بنور المدنية الإسلامية. ومع أنه لم يكن في ذلك الوقت وسائل اتصال سريعة وسهلة كما هي اليوم، فقد كان أي كتاب يصدر في بخارى يصل بسرعة ويدرّس في مدارس الأندلس، ويعبر الصحراء ليصل إلى السودان، ويبحر عبر الأمواج ليصل إلى سومطرة. وهكذا كانت مؤلفات ابن سينا بعد أن تظهر في الشرق الأقصى تثير النقاشات والسجالات في مجالس علماء وفلاسفة قرطبة، كما أن أفكار وآراء ابن رشد في المغرب الأقصى كانت تُناقش في مجالس علماء بغداد. كان هذا يجري في الوقت الذي كانت

فيه بقية أرجاء العالم غارقة في الظلام والجهل والتعصب. وهكذا كانت البلاد الإسلامية مزدهرة بفضل نور المعرفة والمدنية.

## [خصوصية المدنية الإسلامية]

كانت المدنيات التي ظهرت قبل المدنية الإسلامية محدودة، وتقتصر على شعب أو على مجتمع. وهكذا، على سبيل المثال، نجد أنه في عصر ازدهار المدنية اليونانية كانت الشعوب المجاورة لأثينا تعيش في حالة متخلفة. ومع أن اليونانيين تمكنوا من حمل مدنيتهم إلى إيطاليا وإفريقيا وإلى شواطئ البحر الأسود إلا أن مدنيتهم في تلك البلدان بقيت محدودة ومقتصرة عليهم، ولم يتمكنوا من ضم الشعوب الأخرى إلى مدنيتهم.

أما المدنية الإسلامية فلم تبق محدودة ومقتصرة على شعب واحد أو على مجتمع واحد. فقد برزت هذه المدنية بعد ظهور الدين الإسلامي وأصبحت الأساس الرئيس لذلك الدين. ونظرًا لأنها وصلت إلى ذلك المستوى لتصبح مدنية عامة فقد امتدت المدنية الإسلامية بسرعة لتنير كل أرجاء العالم كما تمتد أشعة الشمس لتنير كل أرجاء العالم بعد شروقها. فمع اعتناق الإسلام أخذت المدنية الإسلامية تنير كل الشعوب والمجتمعات التي دخلت في إطار تلك المدنية.

لقد تأسست المدنية اليونانية والمدنيات التي ظهرت قبلها وتطورت بشكل بطيء، وحتى المدنية الأوروبية الحالية لم تبرز إلا بعد صراع طويل للعلم والمعرفة مع الجهل والتعصب، وبعد أن ثار آلاف الناس ضد الجهل والبؤس والظلامية مضحين بأرواحهم في سبيل الحقيقة والحرية، وبعد أن سُفِح الكثير من الدم، وبعد أن حدث الكثير من الثورات. أما المدنية الإسلامية فقد برزت بسرعة وسهولة كبيرة. فخلال وقت قصير امتدت المدنية الإسلامية وهي تتطور وتتكامل وتتسامى لتشمل كل العالم الإسلامي.

في البداية لم يكن للشعب الإسلامي حاجة إلى اللقاءات والخبرات؛ لأنه وجد المؤلفات الباقية من مدنيات الشعوب السابقة التي ورثها جاهزة، وبالتحديد المؤلفات الباقية من مدنيات الحيثيين والآشوريين والفينيقيين والميديين والمصريين واليونانيين. فمع تلاشي هذه المدنيات أصبح في الإمكان تشكيل مدنية أكثر اكتمالاً وتطورًا، وهو ما حدث في الواقع. فالمسلمون أخذوا ببساطة المؤلفات التي وصلت من تلك الشعوب المتمدنة، وبعد أن تعرفوا على مستوى السابقين وتنوّروا بعلومهم، انطلقوا وانتشروا للبحث والاكتشاف والاختراع، أي أنهم تمكنوا من خلق مدنية أكثر اكتمالاً وتطورًا من سابقاتها. ففي البداية ترجموا إلى لغتهم وتعرفوا على مؤلفات الفلاسفة اليونانيين مثل أفلاطون وأرسطو وإقليدس، ومؤلفات الكتّاب مثل بطليموس، ثم أخذوا في شرح مفصل لتلك المؤلفات. ولتوسيع منجزاتهم العلمية أخذ العلماء المسلمون

في وضع التعليقات والحواشي والملاحظات والملاحق على تلك المؤلفات. وبعد ذلك تمكنوا من التوصل إلى الكثير من الاكتشافات والاختراعات التي لم تكن لتخطر على بال السابقين. وهكذا فإن المدنية الإسلامية ظهرت فورًا، وتمكنت من الانتشار والاكتمال بسرعة كبيرة للغاية.

المدنية الإسلامية لم تظهر بمعارضة الحياة والتضحية بها ولا بخلق المصاعب والكوارث. ففي أوروبا كانت السلطات الدينية وراء معارضة وعرقلة ظهور وتطور المدنية هناك. أما الدين الإسلامي فقد كان يأمر بالبحث عن العلم والمعرفة والحقيقة. كما أن الإسلام يدعم ويحض أتباعه ويوجههم إلى طلب واكتشاف التمدن؛ فإن الدول الإسلامية قامت على مثل هذه المبادئ. ومع تجنب هذه الدول لممارسة العنف ووضع العراقيل فإنها لم تعرقل قط ظهور وتطور المدنية، بل كانت في خدمة تلك المدنية. وإذا ألقينا نظرة على تاريخ الشعوب الإسلامية لوجدنا بوضوح كم من الخدمات قدّمها الأمويون في المشرق والأندلس والعباسيون والملوك والسلاطين الذين جاءوا بعدهم لأجل نشر وتطور العلوم والمعارف والمدنية في كل أرجاء البلاد الإسلامية، وكم ساعد ودعم أولئك العلماء وكم سهّلوا نمو وتطور المدنية.

وهكذا مع الظهور السريع للمدنية الإسلامية أصبح من السهل تطورها وانتشارها. وكما شرحنا سابقًا فإن المدنية الإسلامية مع اعتمادها على المدنيات

السابقة إلا أنها لم تجد أمامها العراقيل من قبل الدين ولا من قبل الدول الإسلامية، بل على العكس حظيت بدعمهما.

## [مرجعية المدنية الإسلامية]

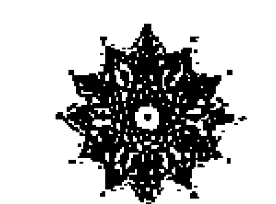
إن السبب الرئيس في تسميتنا لهذه المدنية بـ«المدنية الإسلامية» لا يتعلق فقط بتحقّقها لدى الشعوب الإسلامية، بل لأنها ثمرة الدين الإسلامي، ولذلك لا يمكن أن تسمى بغير ذلك. ومهما يكن الأمر فإن المدنية اليونانية ومدنيات الشعوب الأخرى القديمة قد خدمت في البداية المدنية الإسلامية، إلا أن المؤلفات التي وصلت من تلك المدنيات سرعان ما تم تجاوزها وتم طيها؛ لأنه ظهرت بعدها مؤلفات أكثر اكتمالاً. فعندما كان العرب في مرحلة البداوة تمكنوا فقط من تجميع مؤلفات المدنيات السابقة، ولكن ظهور الإسلام مكّنهم من أن يكون لهم مدنية جديدة. ومع أن تلك المدنيات ساعدت في تأسيس المدنية الإسلامية إلا أن أساس البناء الجديد قام على قواعد العدل والمعرفة للدين الإسلامي. فالمسلمون أخذوا فقط المعارف والمؤلفات الفلسفية والعلمية لليونانيين، ولكنهم لم يأخذوا نظامهم وطريقتهم. وبعبارة أخرى فقد اطلع المسلمون على مؤلفات المدنية اليونانية ومدنيات الشعوب الأخرى واستفادوا منها، ولكنهم لم يقلدوها. فهم قد درسوا تلك المؤلفات وحللوها بشكل مفصل وقيّموها وكيّفوها مع المعارف الإسلامية لتصبح خاصة بهم؛ لأن المدنية الإسلامية قد تطورت أكثر ولم تعد تشبه المدنية اليونانية لأنها أصبحت تقوم على قواعد مختلفة تمامًا.

ولا يمكن القول هنا بأن المدنية الإسلامية هي نتاج عقلي وحصيلة لجهود العرب؛ لأن هذا يفترض أن العرب كانوا مُتمدِّنين على هذا المستوى قبل ظهور الإسلام. وذلك الأمر ينطبق على الشعوب الإسلامية الأخرى. ولذلك يمكن القول بحرية بأن المدنية الإسلامية هي ثمرة وحصيلة الدين الإسلامي بالضبط؛ لأن هذه المدنية ظهرت مع ظهور الدين الإسلامي. فحيثما وصل الدين الإسلامي وصلت المدنية الإسلامية، وكل شعب اعتنق الإسلام أخذ معه المدنية الإسلامية. إن المدنية الإسلامية هي ثمرة وحصيلة الدين الإسلامي لأنها قامت على الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. المدنية الإسلامية هي نتاج الدين الإسلامي لأن النماذج الأولى للمدنية الإسلامية كانت تتمثل في شخصية الرسول والصحابة الأجلاء، ولأن القرآن الكريم مرشد للمدنية حيث إنه يحضّ على العدل وتطبيقه ويعلي من شأن العلم والمعرفة. فالرسول- عليه الصلاة والسلام - يأمرنا للقول «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»[1] ، و«اطلبوا العلم ولو في الصين»[2]. وكذلك الأمر بالنسبة للصحابة الأجلاء والعلماء المسلمين الكبار الذين كانوا نموذجًا بسلوكهم الجيد وسعة صدرهم لأجل العلم والمعرفة والمدنية والدعوة لإرساء المدنية.

---

(١) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس، إلا أنه لا يصح سندًا، وقد أورده العجلوني في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس». ومعناه صحيح.

(٢) أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس. وقال البيهقي: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.



## [انتشار المدنية الإسلامية ونتائجه]

لقد تنوّرت شعوب الجزيرة العربية، التي كانت مهد الدين الإسلامي، مع هذا الدين. فبعد أن تحرروا من العقائد الفارغة والعادات غير الحميدة لم تعد الصحراء تتسع لهم، ولذلك أخذوا في البحث عن أمكنة يمكن أن يعيشوا فيها بشكل أفضل حيث يمكن أن يؤسسوا مدنية جديدة. وهكذا فقد قاموا بنشر الدين الإسلامي الذي فتح أبصارهم في بلاد العالم. ومع إنقاذهم للناس من الظلم والجهل، انتشر قادة المسلمين في العالم ليؤسسوا المدنية الجديدة. وحين امتد نور الإسلام ووصل بلاد الشام والعراق ومصر وإيران، بدأت حياة جديدة في تلك البلاد وأخذت تبرز ملامح مدنية كما لو كانت الأرض تستقبل المطر بعد طول انقطاع، أو كما لو كانت الأرض تستقبل الري فجأة بعد أن كادت تتحول إلى أرض قاحلة.

لقد نشرت هذه المدنية النور حولها، وانتشرت سريعًا كالنار حين تلتهب. فانتشار الدين الإسلامي وتوسعه أدى إلى انتشار المدنية الإسلامية وتوسعها، كما أن نمو وتطور المدنية الإسلامية ساعد على انتشار وتوسع الدين الإسلامي.

ولم يكتف المسلمون بإعادة بث نور المدنية في بلاد الشام والعراق ومصر وإيران، التي كانت موطنًا لمدنيات قديمة، بل سعوا إلى نقل نور هذه المدنية إلى السهول الباردة لتترستان وإلى الصحاري الساخنة لإفريقيا التي لم تكن قد عرفت أية مدنية. وهكذا فقد قام حملة العلم والمعرفة الإسلامية في بغداد ودمشق والقاهرة وأصفهان وبخارى وسمرقند وهراة وشيراز والقيروان وفاس وقرطبة وغرناطة بإنارة نصف آسيا الغربية ونصف إفريقيا الشمالية وجزء كبير من أوروبا. ومن ناحية أخرى فقد قام التجار العرب بتجوالهم في المحيط الهادئ بإنقاذ سكان جزر الشاطئ الغربي للهند والصين وسواحل شرق إفريقيا من الحالة المتوحشة التي كانوا فيها، حيث إنهم أخذوا بعد ذلك في التمدن والسمو.

وهكذا فإن المدنية استمرت بيد المسلمين من ثمانية إلى تسعة قرون بعد ظهور الإسلام. ففي كوكب الأرض لم يكن هناك شعب أو مجتمع متمدن غير الشعوب الإسلامية. فالمدنية الإسلامية هي التي أنقذت آسيا وإفريقيا من الحالة الصعبة التي كانت فيها بعد أن أدت حروب الرومان ودمارهم إلى كوارث هناك. وهكذا فقد أعاد المسلمون الحياة إليها بمدنية جديدة. كما أنقذ المسلمون الأوروبيين من الفظائع الوحشية التي جاءتهم مع الشعوب البربرية القادمة من الشمال. فالمسلمون إذن هم من كشف لشعوب تلك الأرجاء عن مدنية جديدة.

ونظرًا لأن الأوروبيين آنذاك لم تكن لديهم أية معرفة بالمدنية اليونانية القديمة فقد أخذوا بالتعرف عليها في المدارس الجديدة التي ظهرت في الأندلس.

فهناك تعرف الأوروبيون على أسماء علماء اليونان، وهناك تعرفوا على النصوص الأصلية لعلماء اليونان والنصوص المفقودة من خلال الترجمات العربية لها.

ومن ناحيتهم فقد أعد خلفاء المسلمين العدة اللازمة لتأسيس وإرساء المدنية الإسلامية. فبعد انحسار الحروب انصرفوا بكليتهم لتشجيع العلم والمعرفة، التي هي أساس المدنية، وسعوا إلى جلب العلماء والمترجمين من كل أرجاء العالم إلى بلاد الإسلام. وأخذوا في ترجمة مؤلفات اليونانيين والآشوريين والمؤلفات القديمة الأخرى، كما أخذوا في تأسيس المدارس والجامعات والندوات العلمية. فقد هدّد الخليفة هارون الرشيد قيصر الروم بالحرب إذا لم يرسل له من القسطنطينية إلى بغداد بعض أشهر العلماء في اللغة اليونانية[1]، كما أن ابنه المأمون كان يزن الكتب المترجمة إلى العربية، ويكافئ أصحابها بوزنها من الذهب.

(١) يذكر ابن أبي أصيبعة أنه كانت بين المأمون وملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق، وأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت (مكتبة الحياة) ١٩٦٥، ص ٢٦٠.

## [العلوم عند العرب قبل ظهور الإسلام وبعده]

قبل ظهور الدين الإسلامي كان العرب يتعاطون الشعر فقط. أما فيما يتعلق بالعلوم فقد كان للعرب بعض المعرفة بعلم الفلك. وإذا استثنينا بعض الملاحظات عن علم الفلك لا نجد عند العرب قبل الإسلام مؤلفات تتعلق بالعلوم الأخرى.

أما بعد ظهور الدين الإسلامي فقد تطورت بسرعة علوم اللغة ومجالات الأدب الأخرى (البيان والبديع ... إلخ). فاللغة العربية تسامت واتسعت أكثر، بينما أصبحت اللغة الفارسية بعد إصلاحها أكثر اتساعًا، وغدت لغة سائدة للأدب. وكذلك الأمر مع اللغة التركية بعد أن أصبحت تكتب بالحروف العربية، حيث أخذت تنمو وتتطور بسرعة بعد أن أصبحت تتسع للترجمة والعلوم المختلفة.

ولأجل إبراز جوهر ومستوى المدنية الإسلامية لابد من شرح وتوضيح مختصر للحالة التي كان عليها كل فرع من فروع المعرفة عند الشعوب الإسلامية،

ولابد من شرح وتوضيح مختصر للمؤلفات الرئيسة للعلماء المعروفين في كل فرع من فروع العلم والمعرفة.

## علم الفلك

ترجمت إلى اللغة العربية مؤلفات متنوعة حملت إليها من مختلف الأرجاء. وقد بدأت ترجمة ودراسة تلك اللغات في العالم الإسلامي في عهد الخليفة العباسي الثالث أبي جعفر المنصور، الذي كان له اهتمام كبير بالعلم والمعرفة[1]. وكان المنصور قد تعلم علم الفلك على يد عالم هندي، ونقل ذلك فيما بعد إلى اللغة العربية. ولما عرف أن هذا العلم متطور أكثر عند اليونانيين تخلى عن سعيه لترجمة مؤلفات المدنية الهندية التي كانت أقل تطورًا. ولذلك فقد عبّر عن اهتمام كبير بجلب وترجمة مؤلفات العلماء اليونانيين إلى اللغة العربية.

---

(١) أبو جعفر المنصور كان الخليفة العباسي الثاني (وليس الثالث)، حكم خلال ١٣٦-١٥٨ هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م، والذي شهد عهده بالفعل اهتمامًا خاصًا بعلم الفلك. للمزيد حول ذلك انظر: د. علي حسن موسى، أعلام الفلك في التاريخ العربي، دمشق (وزارة الثقافة) ٢٠٠٢، ص ٣٢.

وفي ذلك الوقت كان بعض العلماء اليونانيين النسطوريين[١] المؤيدين لأفكار أرسطو الفلسفية قد فرّوا ولجأوا إلى أرجاء آسيا خوفًا من ملاحقة ومعاقبة الإمبراطورية البيزنطية لهم، بسبب أفكارهم الجيدة التي كانت لا تنسجم مع تعصب المسيحية. وكان هؤلاء قد أسسوا مدرسة لهم في أديسه أو أورفه[٢]، ولكن هذه المدرسة دمرها الإمبراطوران البيزنطيان زينون وازفريان. ونتيجة لذلك فقد تشتت هؤلاء العلماء وذهب قسم منهم إلى خراسان، حيث أسسوا في نيسابور مدرسة مهمة. وقد استقر هناك غالبيتهم في حالة بائسة نتيجة لملاحقتهم.

وقد أخذ أبو جعفر المنصور هؤلاء العلماء تحت حمايته، وذلك للاستفادة من معارفهم ومهاراتهم، بشرط أن يبتعدوا عن العالم المسيحي ويتجنبوه. وقد استخدم هؤلاء لكي يترجموا إلى اللغة العربية المؤلفات اليونانية في العلوم والمعارف، وذلك لكي ينشرها في العالم الإسلامي.

---

(١) المقصود أتباع نسطور، بطريرك القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١م، الذي قال بوجود طبيعتين إلهية وبشرية للسيد المسيح على عكس أتباع الطبيعة الواحدة. وبعد ملاحقة النسطورية من قبل الكنيسة والدولة لجأ أتباعها إلى مدينة نصيبين، التي غدت المركز الديني والثقافي لهم، ومنها انتشرت هذه العقيدة بين المسيحيين في بلاد الرافدين تحت الحكم الساساني. وبعد الفتح الإسلامي أصبحت بغداد مقرًّا لبطريرك النساطرة، وقد تحول بعضهم إلى الكاثوليكية على يد الجمعيات التبشيرية في القرن الأخير وأصبحوا يعرفون باسم «الكلدان»، بينما احتفظ بعضهم بعقيدته في شمال العراق حيث أصبحوا يعرفون باسم «الأشوريين»: الموسوعة العربية، ج ٢٠، دمشق ٢٠٠٨، ص ٦٤٩-٦٥٠.

(٢) أوديسه (كما عرفت في بيزنطة)، أو الرها (كما عرفت عند العرب) أو أورفه كما تعرف الآن في تركيا، كانت أحد مراكز الثقافة السريانية، واشتهرت بعلوم اللاهوت والفلسفة والطب، وهي تقع الآن على الحدود السورية التركية: د. عبد الله العمري، تاريخ العلم عند العرب، عمان (دار مجدلاوي) ١٩٩٠، ص ٤٤-٤٥.

## [تطور علم الفلك حتى عهد المأمون]

تابع الخلفاء الذين جاءوا بعد أبي جعفر المنصور هذا الطريق، وسعوا إلى المزيد وإلى الإكثار من كل نوع من المعارف لأجل إيقاظ العقل الإنساني في العالم العربي، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعاني من عبء التعصب والجهل. وهكذا خلال وقت قصير تم جمع أشهر العلماء من مختلف أرجاء الدول التي دخلت في إطار الخلافة الإنسانية؛ حيث قام هؤلاء بترجمة أهم مؤلفات العلماء اليونانيين التي امتلأت بها المكتبات التي أسسها الخلفاء. وفي الكثير من المدارس التي أُسِّست في بغداد أصبحت تدرّس أيضًا مؤلفات أرسطو وأبقراط وغاليان وإقليدس وأرخميدس وبطليموس، إلى جانب علوم القرآن والحديث. كما أُسست مبانٍ كبيرة لأجل المداولات والمناقشات في الأمور العلمية والأدبية. وكان لجامعة بغداد[1] دور كبير في نمو وتطور علم الفلك في القرون الوسطى.

---

(١) يطلق ش. سامي اسم «جامعة» على المدرسة الكبيرة، وهو يقصد هنا المدرسة المستنصرية التي تأسست في ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م خلال عهد الخليفة المستنصر بالله.

بعد أبي جعفر المنصور كان الخليفة العباسي السابع المأمون أكثرهم معرفة، ولذلك فقد ساهم كثيرًا في نشر وتقدم العلوم والمعارف. ففي عهد هذا الخليفة تقدمت العلوم والمعارف وانتشرت إلى ذلك المستوى في العالم الإسلامي، حتى أن عهده يمثّل صفحة مضيئة في تاريخ المدنية الإسلامية. وإذا اعتبر عهد بركليس في اليونان القديمة أفضل عهد مثمر فإن عهد المأمون أيضًا يمكن أن يعتبر في التاريخ الإسلامي هو العهد المماثل في العطاء والرفاه، وهو يستحق ذلك ولا يوجد في ذلك أي خطأ.

وإلى جانب المنصور والمأمون فقد ساهم أيضًا هارون الرشيد والمهدي في تقدم المعارف. فبالإضافة إلى ما تمّ في عهدهما من ترجمة للمؤلفات اليونانية فإن الاحترام الذي أظهره الرشيد والمهدي للعلماء الأجلاء أدى إلى بروز الكثير من الشعراء والأدباء والعلماء في المجالات المختلفة. ومن هؤلاء لدينا الفلكي المعروف مسيح الله[1] وأحمد بن محمد النهاوندي[2] الذي لم يكن له مثيل في قياس أبعاد النجوم بواسطة المرصد، والحجاج بن يوسف الذي كان أول من جلب وترجم مؤلفات إقليدس إلى اللغة العربية.

---

(١) يرد عند ابن النديم باسم «ما شاء الله»، وهو من يهود بغداد الذي عاش حتى عهد الخليفة المأمون، ويذكر له عناوين حوالي ثلاثين من مؤلفاته في هذا المجال: ابن النديم، الفهرست، ج ٧، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٢) المقصود هنا أحمد بن محمد الحاسب، الذي كان من علماء القرن الثالث الهجري والذي اشتهر بكتابه «المدخل إلى علم النجوم»: ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٧.

وفي ذلك الوقت طور المسلمون علم الميكانيكا لدرجة أن الساعة ذات الجرس التي أرسلها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا أذهلت كل أوروبا آنذاك. وللأسف لم يكتب بما فيه الكفاية عن مدى تطور هذا النوع من الأعمال الدقيقة في بغداد. ولكن ما لدينا من كتابات للمؤرخين الأوروبيين عن الساعة ذات الجرس تمثل دليلاً كافيًا يتحدث عن مدى تطور علم الميكانيكا في العالم الإسلامي آنذاك.

كان المأمون هو الذي تابع وأكمل ما بدأه أبو جعفر المنصور. فقد جلب هذا الخليفة إليه أشهر العلماء في عصره، وسعى ليل نهار لأجل تطور العلوم والمعرفة. وهكذا جمع كل مؤلفات علماء الإسكندرية وأنفق في ذلك الكثير، كما تمكن أيضًا بفضل علاقاته الجيدة مع الإمبراطورية البيزنطية أن يجلب من أثينا مؤلفات يونانية، وأمر بترجمتها كلها إلى اللغة العربية. وفي عهد هارون الرشيد تمكن خالد ابن يحيى بمساعدة أحد المكيين من إنجاز ترجمة جديدة لـ «المجسطي»[١]، الذي كان قد تُرجِم سابقًا إلى العربية، وطلب أن توضع خرائط وجداول توضح حركة الأجرام السماوية. وإلى جانب يحيى بن خالد فقد توصل سند بن علي وخالد ابن عبد الملك الماوردي، اللذان حاولا أيضًا ترجمة «المجسطي»، إلى اكتشاف معطيات جديدة في علم الفلك وعلم النجوم. وبفضل ذلك فقد تمكنا من تصحيح ما ورد في «المجسطي»، وتقدم بذلك علم الفلك على أيديهما.

(١) المقصود هنا كتاب كلاديوس بطليموس المعروف.

وقد تمكن العالمان علي بن البحتري وعلي بن عيسى، بمساعدة اثنين معروفين في علم الفلك، من القيام بتجربة ناجحة وقياس خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية.

وفي عهد الخليفة المأمون قام أحمد بن عبد الله الحبشي[١] بالاستناد إلى خبرته الذاتية، ومن دون أن يعتمد على المعارف السابقة، بوضع ثلاثة جداول فلكية يرسم فيها حركة الكواكب. وفي هذا المجال أيضًا اشتغل واشتهر عباس بن سعيد الجوهري وابن إسحاق الكسوفي وعبد الله بن سهل الفرجاني وغيرهم من علماء الفلك، الذين أعلوا كثيرًا من شأن عهد المأمون بعد أن صحّحوا الكثير من أخطاء علماء اليونان في علم الفلك. فقد أثبت هؤلاء مسارات حركة الكواكب ونجحوا في إثبات أن المسافة التي تفصل الشمس عن كوكب الأرض ليست واحدة، وأن الإشارات الشمسية وكسوف القمر والشمس ظواهر طبيعية. وإلى جانب ذلك فقد نجح هؤلاء في اكتشاف الكثير من التفاصيل التي تتعلق بظهور النجوم والمذنبات.

إلا أن هذه الشخصيات التي كان لها دورها الكبير في تقدم علم الفلك لم تكن الأولى التي نشرت علم الفلك في العالم الإسلامي. فقبل هؤلاء قام محمد بن إبراهيم الفزاري بتأليف كتاب جيد قارن فيه بين علم الفلك عند

---

(١) المقصود أحمد بن عبد الله حبش الحاسب المرزوي، الذي لقّب أيضًا بحبش. عاش وعمل أيضًا في عهد الخليفة المعتصم: القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦، ص ١١٧.

الهنود وعلم الفلك عند اليونانيين. كما قام أحمد بن محمد النهاوندي في نيسابور بمتابعة حركة الأجرام السماوية ووضع جداول جديدة في كتابه المسمى «المستعمل»، الذي شرح فيه حركة الأجرام السماوية. وإلى جانب أولئك فقد قام مسيح الله المذكور سابقًا، الذي عاش كل حياته في عهد المنصور، بوضع كتاب حول أدوات قياس المسافات بين النجوم. وقد نجح هذا العالم في شرح الكثير من الأفكار والآراء العلمية المرغوبة والمقبولة التي تتعلق بجوهر وطبيعة الأجرام السماوية، حتى أن الاكتشافات الحديثة في عصرنا هذا قد أثبتت معظم ما توصل إليه.

ومن العلماء المعروفين في عهد المأمون لدينا محمد بن موسى الخوارزمي، الذي كان الأشهر في علم الرياضيات وخاصة علم الجبر. وكان قد وضع كتابًا بطلب من الخليفة المأمون عن علم الفلك عند الهنود سمّاه «سندي هند»[1]. ومع أنه لم يكن من العلماء المعروفين والمعتبرين في علم الفلك إلا أنه كان رائدًا في كل علم. فمع معرفته الممتازة للغة اليونانية ومهارته الكبيرة في التأليف - حيث إنه ألّف أكثر من مائتي كتاب - فقد ساهم هذا العالم في إعلاء شأن حكم المأمون. فبالإضافة إلى ترجمته للكثير من المؤلفات اليونانية، التي لم تكن قد

(١) المقصود «كتاب السند هند الصغير» تمييزًا عن «كتاب السند هند الكبير» الذي كان قد ترجمه محمد بن إبراهيم الفزاري عن السنسكريتية في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور. وقد صار لكتاب الخوارزمي هذا شهرة كبيرة بما أضافه وصحّحه: حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، الموصل (جامعة الموصل) ١٩٧٧، ص٢٠٢.

ترجمت حتى ذلك الوقت، فقد وضع عليها الكثير من الحواشي والتعليقات وطوّر ما فيها بأفكاره واكتشافاته الشخصية. ومن أهم مؤلفاته كتاب كامل عن قيم وفوائد الفلسفة، وكتاب «الحكمة الداخلية»، وعدة مؤلفات عن المنطق والأدب والرياضيات وعلم الهيئة وعلم الفلك وعلم المناظير ... إلخ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت له مؤلفات في الطب، كما ألّف كتابًا جيدًا عن علم الأدوية.

ومن تلاميذ هذا العالم لدينا أبو مشعر، الذي يعرف لدى العلماء الأوروبيين باسم Albumazar، الذي اشتغل في علم الفلك وقام بالاستناد إلى أفكاره واكتشافاته بوضع جدول فلكي جديد لحركة الأجرام السماوية سمّاه «زيج أبي مشعر».

## [تطور علم الفلك بعد المأمون]

استمر تطور علم الفلك بعد وفاة المأمون أيضًا. فقد ساهم أولاً موسى بن شاكر وأولاده الثلاثة (محمد وأحمد وحسن) في تطور وتقدم هذا العلم، وهو ما تابعه الكثير من بعدهم كابن يونس الذي له مؤلفات معتبرة في هذا المجال. ففي كتابه «الزيج الحاكمي»[1] اقترب العلماء من حقيقة تحديد موقع الشمس بالنسبة إلى كوكب الأرض. ومع أنهم لم يقولوا صراحة بأن الأرض تدور حول الشمس إلا أنهم حسبوا بالتفصيل مدة دوران الأرض حول الشمس.

وكان مرصد الإخوة الثلاثة يقع في الدرب المسمى «باب الطاق» في بغداد. ومن ذلك المرصد كان الإخوة يتابعون كسوف القمر والشمس، ويصححون أخطاء العلماء السابقين، ويكتشفون معطيات مفيدة حول حجم القمر. وكان أحمد، الأوسط بينهم، ماهرًا أيضًا في علم الميكانيكا؛ حيث تمكن من التوصل إلى اكتشافات واختراعات مهمة. أما الأكبر بينهم، أبو جعفر محمد بن موسى

(١) كان علي بن عبد الرحمن بن أحمد يونس المصري (توفي ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) صاحبًا للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وألّف له هذا الزيج الذي عُرِف باسمه، وكان يعد من أكمل الأزياج: د. علي حسن موسى، أعلام الفلك في التاريخ العربي، دمشق (وزارة الثقافة) ٢٠٠٢، ص ١٤٨.

ابن شاكر، فقد تمكن من تفسير الحركات اليومية للأجرام السماوية، وكان يقوم كل يوم بوضع جدول لذلك. ومن تلاميذه في علم الفلك لدينا العالم المعروف ثابت بن قرة.

وبعد أن تمكنوا من الأسس والمناهج الأساسية للعلوم، واطّلعوا على الاكتشافات التي تمت قبلهم، قام العلماء المسلمون مع ما تجمع لديهم من معارف بإنجاز تجارب، والسعي إلى اكتشاف حقائق جديدة لم تكن معروفة من قبل. وبفضل جهود العلماء المسلمين في هذا المجال تمكن الأوروبيون الحاليون من التوصل إلى أعلى مستوى للمدنية. وبعبارة أخرى فقد اعتمد الأوروبيون على المناهج العلمية للعلماء المسلمين. فقد كان ثابت بن قرة المذكور من أوائل من اكتشف وذكر استخدام الجبر في علم الهندسة، حتى يمكن القول إنه أحيا علم الهندسة. وبالإضافة إلى خدماته الكبيرة لعلم الرياضيات وغيره، فقد درس أيضًا اكتشافات من سبقه في علم الفلك. وبعد أن انشغل طويلاً في التجارب، تأسف بأنه لم يستطع أن يتوصل إلى شيء جديد في هذا العلم. ورغم عدم شعوره بالارتياح لما قدّمه للعلم، فقد قام مجددًا بترجمة «المجسطي» لبطليموس؛ حيث صحّح فيه أخطاء العلماء المسلمين الذين سبقوه وأضاف إليه ملاحظاته الجديدة. ومع أن بعض العلماء الأوروبيين ينسبون إليه اكتشاف حركة الأجرام السماوية إلا أن هذا لم يكن اكتشافه، بل كان رأيًا غير مثبت جاء من اليونان.

وما بين الأولاد الثلاثة لموسى بن شاكر وعصر عالم الفلك البتّاني لدينا صفحات من التاريخ مزدانة ومليئة بأبحاث واكتشافات العلماء الآخرين، مثل أبي العباس فضل بن حاتم النيريزي ومحمد بن عيسى وأبي عبد الله الماهاني وغيرهم.

وكان النيريزي أعلم عصره في علم الهندسة وعلم الفلك. فقد صحّح وأثبت الكثير من أبحاث واكتشافات علماء الفلك المسلمين من عصر المأمون. كما وضع تعليقات وملاحظات إضافية على كتاب «المجسطي»، وبقي شخصية معتبرة بين علماء المسلمين أكثر من قرن بعد وفاته. وقد زادت شهرته حين وضع جداول فلكية جديدة. ومع أن ابن يونس أشار إلى بعض أخطائه إلا أنه أشاد بما قدمه لأجل تقدم هذا العلم.

أما العالم الموسوعي الماهاني، الذي ورد ذكره كعالم رياضيات في المعجم المعروف «مكتبة الحكماء» للزوزني، فقد تعمق أيضًا في علم الفلك وتجلى ذلك في رصده وكتاباته عن الحوادث الطبيعية كخسوف القمر والشمس وبعض الحركات الحاصلة في وقته للأجرام السماوية، كما ألّف كتابًا خدم به كثيرًا تطور وتقدم العلوم والمعارف والاكتشافات المختلفة[١].

(١) للماهاني عدة مؤلفات في علم الفلك على رأسها «رسالة في عروض الكواكب»: موسى، أعلام الفلك، ص ٩١.

ومع أن البتّاني لم يقم باكتشافات في علم النجوم وعلم الفلك، محافظًا بذلك على نهج بطليموس، إلا أنه جمع معارف واكتشافات علماء المسلمين من قبله وألف كتابًا مهمًّا كـ «المجسطي»[1]. وقد حقّق بهذا الكتاب سمعة معتبرة حتى أنه تجاوز فيه أعمال السابقين الذين توصلوا إلى الاكتشافات، والذين كان بعضهم قد اختفى ذكره تمامًا. ولذلك فإن الكثير من الاكتشافات لعلماء المسلمين تنسب إلى البتّاني، كما يُنسب إلى بطليموس ما كان من اكتشافات في المدنية اليونانية. ويتميز الأوروبيون بذلك حيث إنهم ينسبون كل الاكتشافات المهمة إلى البتّاني، الذي يشتهر لديهم باسم Albatini. ومن بين الأمور الأخرى ينسب إليه قياس تأخر وصول الشمس إلى نقطة المركز بالنسبة إلى الأرض خلال السنة الواحدة، وهو ما سبب الفرق بين السنة اليونانية (الشرقية) والسنة الإفرنجية (الغربية)، إلا أنه سواء بالنسبة إلى هذا التصحيح أو بالنسبة إلى دوران الشمس حول الأرض (والأصح دوران الأرض حول الشمس)، الذي كان غير معروف بالنسبة إلى اليونانيين، كان جزء من الأرض يبقى دون ضوء. وكذلك الأمر مع حقيقة أن الشمس كانت تقترب أحيانًا وتبتعد أحيانًا عن الأرض، حيث إن كل هذه الأمور اكتشفها علماء المسلمين في عصر المأمون، أي قبل البتّاني.

(١) المقصود «الزيج الصابئ» الذي ضمّنه أرصاد القمر والشمس وإصلاح حركاتها المثبتة في كتاب «المجسطي» لبطليموس: موسى، أعلام الفلك، ص ١٠٧-١٠٨.

لقد قام البتّاني، الذي عاش في القرن الرابع الهجري، بجمع اكتشافات من سبقوه لكي يتم دراستها بسهولة. وفي الواقع لقد كان يقوم في مرصده بالرقة بتدقيق وتصحيح اكتشافات وتجارب من سبقوه. ولذلك لا يمكن بأي شكل تجاهل إسهامه الكبير في جامعة بغداد، وبشكل عام فيمن جاء بعده من العلماء.

وطالما أننا في القرن الرابع الهجري المذكور فلدينا هنا أسماء كثيرة من علماء المسلمين الذين ساهموا في تطور وتقدم علم الفلك مثل سهل بن بشارة ومحمد بن محمد السمرقندي، وعلي بن حسن بن إسماعيل الجوهري، وأبي جعفر بن أحمد بن عبد الله بن الحبشي، ومحمد بن الحسين بن حامد بن الأدمي وقسطا بن لوقا، الذي نشأ بروح المدنية الإسلامية وألّف كتابًا في العربية. وفي القرن المذكور أيضًا فقد ساهم بشكل خاص في علم الفلك بنو ماجر الأتراك.

ومن هؤلاء لدينا علي بن الماجري وابنه[1] أبو الحسن علي بن الماجري- من الذين اشتهروا باسم بني ماجر- اللذان قاما بأبحاث وتجارب متواصلة خلال نصف قرن وأنجزا عملاً متكاملاً بعنوان «البديع». ففي هذا الكتاب استخدما طريقة جديدة في البحث في علم الفلك، التي اعتمد عليها من جاء بعدهم. وكان لهذين العالمين عبد اسمه مفلح اهتما بتعليمه بعد عتقه؛ حيث ساعدهما كثيرًا. وقد قام مفلح نفسه بتأليف كتب فيما بعد. وهكذا فقد تمكن مفلح من

(١) الصواب عبد الله بن أماجور الفرغاني، نسبة إلى فرغانة، الذي أورد له ابن النديم عدة مؤلفات في علم الفلك: ابن النديم، الفهرست، ج ٧، ص ٢٨٠.

اكتشاف بعض حركات للقمر كانت غير معروفة لدى سابقيه. وكان أبو الحسن علي بن الماجري قد توصل إلى اكتشافات مهمة تتعلق بالقمر؛ حيث توصل إلى أن حواف كوكب القمر من حيث العرض ليست دائمة.

## [تطور علم الفلك خلال حكم البويهيين]

تابع الخليفة العباسي الثاني عشر الذي جاء بعد المأمون[1] جمع أشهر العلماء في عصره، وسعى إلى المزيد من تقدم العلوم والمعارف في الوقت الذي كانت فيه الدولة تنكمش بعد أن فقدت الأندلس والمغرب وتونس ومصر؛ حيث أخذ بعض الزعماء المحليين في مناطق خراسان وإيران في التمرد عليه. وهكذا فقد أوشكت دولة الخلافة على الانقسام وزادت فيها الأخطار، إلا أن طريق العلوم والمعارف لم يُغلق بل بقي مطروقًا. فبالإضافة إلى بغداد، كان علم الفلك يدرس باهتمام في دمشق وشيراز وسمرقند ونيسابور وغيرها، ويستمر في تقدمه. ولكن مع ازدياد عدد الإمارات في إيران، ومع ضعف سلطة الخلفاء العباسيين الذين كانوا يرعون العلوم والمعارف، فقد أصبحت العلوم والمعارف في خطر كبير.

(١) المقصود هنا محمد بن هارون الرشيد الذي لقّب بـ «المعتصم بالله» بعد توليه للخلافة خلال ٢١٨ -٢٢٧ هـ / ٨٣٣-٨٤٢ م.

وهكذا عندما لاحظ عضد الدولة وشرف الدولة، من الحكام البويهيين[١]، تراجع مستوى العلوم والمعارف عملا على تأجيج شعلة المعرفة من جديد للحفاظ على نعمة المدنية. فقد رعى عضد الدولة أهم العلماء الذين بقوا بعد وفاة بني الماجري كأبي القاسم علي بن الحسن، المعروف باسم ابن الأعلم، الذي أخذ يتعلم على يديه العلوم المختلفة[٢]. فقد كان المذكور من علماء عصره وألّف كتابًا متكاملاً عن حركة الأجرام السماوية وعلم الفلك بعنوان «فلك نامه»[٣]؛ حيث ناقش فيه ما ورد لدى عبد الرحمن الصوفي من مسائل علمية وخاصة في علم الفلك. وكان تصرف العلماء على هذا النحو يعتبر من الأمور المعتبرة.

ومع أن عضد الدولة لم يصل في شهرته إلى مستوى المأمون إلا أنه لم يقصّر بما قدمه من إسهام للمدنية الإسلامية. فخلال عهده أخذت جامعة بغداد

(١) آل بويه أو البويهيون يعودون بأصلهم إلى إقليم الديلم، وبرز منهم أولاً الإخوة الثلاثة أحمد والحسن وعلي في خدمة الدولة السامانية، ثم أصبحوا حكامًا على المناطق المجاورة للعراق. وقد تحرك أحمد بن بويه على رأس قواته إلى بغداد ودخلها في ٣٣٤ هـ فرحب به الخليفة ومنحه لقب «معز الدولة». وقد أسّس أحمد سلالة حاكمة وراثية لم تترك للخليفة سوى الاسم. وقد تميز من آل بويه عضد الدولة المذكور الذي كان محبًا للعلم وراعيًا للعلماء، فقصده العلماء وألفوا له الكتب مثل «الإيضاح والتكملة في النحو» لأبي علي الفارسي و«الملكي في الطب» لأبي العباس المجوسي و«التاجي في التاريخ» لأبي إسحق الصابي وغيرهم: الموسوعة العربية، ج ٥، دمشق ٢٠٠٢، ص ٦٤٦-٦٥٠.

(٢) يذكر ابن العبري أن عضد الدولة كان إذا افتخر بالعلم والمعلمين يقول «معلمي في الكواكب الثابتة وأماكنها عبد الرحمن الصوفي، وفي حل الزيج الشريف ابن الأعلم»: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٨٩٠، ص ٣٠٤.

(٣) المقصود كتابه «زيج ابن الأعلم» الذي كان من أهم مؤلفاته: موسى، أعلام الفلك، ص ١٢٩.

تستعيد ازدهارها وشهرتها السابقة. وفي عهده استعاد العلماء تحت رعايته مكانتهم المميزة من أمثال عبد الله بن الحسن أبو القاسم والكلوزي. وفي هذا السياق قام جعفر ابن الخليفة العباسي المكلف بالله بوضع كتاب مهم عن المذنبات. كما أن حسن بن أحمد الحمداني، الذي يعود بأصوله إلى اليمن، وأبا النصر القمي[1] قد حظيا أيضًا برعاية شرف الدولة واشتهرا بعلمهما في بلاد الشام.

وهكذا لدينا في عهد عضد الدولة وشرف الدولة من العلماء الذين حققوا شهرة كبيرة أبو سهل القمي وأبو الفداء وأبو بكر بن صبري وأبو حسين الحزي وأبو إسحق إبراهيم الهلالي وأبو سعد فضل الشيرازي وأبو حميد بن محمد الصغاني وأبو حسن المغربي وغيرهم. ومن بين العلماء الذين كان لهم إسهام كبير في العلوم المختلفة لدينا القمي وأبو الوفاء، اللذان ساهما بشكل خاص في علم التنجيم وعلم الفلك. فقد تمكن هذان العالمان من تصحيح المؤلفات العلمية اليونانية لمدرسة الإسكندرية. ومن هؤلاء لدينا أيضًا إسحاق الذي كان يناقش ويساجل بارتياح في علم الرياضيات وعلم الفلك. وتشبه كتاباته ما لدينا الآن في أوروبا من مقالات علمية تطبع في الصحف والمجلات. وإلى جانب ذلك فقد كان ماهرًا أيضًا في علم الميكانيكا. فبفضله في هذا المجال صنعت آنذاك مراصد وأدوات وآلات ذُكرت في ذلك الوقت، وكان من الصعب أن يتم التوصل إليها لولاه. وفي السنوات الأولى للقرن الخامس الهجري ببغداد كان الجهاز المستخدم

---

(١) الصواب نصر بن الحسن القمي، الذي اشتهر بكتابه المعروف «المدخل إلى علم النجوم»: موسى، أعلام النجوم، ص ١٥٠.

لقياس أبعاد النجوم يبلغ طوله إحدى وعشرين قدمًا، بينما كان الجهاز نفسه الذي يستخدمه محمد الماجري يصل طوله إلى ما يقارب ستين قدمًا.

وقد وُلد أبو الوفاء[1] في خراسان وجاء إلى بغداد في السنوات الأولى للقرن الخامس الهجري. وهناك قام بتدقيق وتصحيح الكثير من أخطاء علماء الفلك من قبله، كما ألّف كتابًا شاملاً في علم الفلك بعنوان «الزيج الشامل». ولأجل أن يجمع المزيد من المعارف والاكتشافات المفيدة فقد ألّف كتابًا آخر بعنوان «المجسطي». ويعتبر هذا الكتاب من أكمل ما كتبه علماء المسلمين، وهو الكتاب الذي تعلم الأوروبيون منه الكثير عن المدنية الإسلامية. ومن خلال هذا الكتاب يبدو مدى تقدم العلوم في العالم الإسلامي، وبالتحديد وسائل قياس المسافات والعمليات الجيومترية. فعندما يكون القمر في موقع يشكل فيه مثلثًا مع الشمس والأرض يغير موقعه تحت تأثير هذين الكوكبين. ومع أن الأوروبيين ينسبون حركات كوكب القمر إلى العالم الدانماركي تيكوبراخ[2] إلا أن هذه الحركات (صعود وهبوط القمر) كانت معروفة لعلماء المسلمين من قبله. فهذه الحركات شُرحت بشكل واضح في «المجسطي» الذي ألّفه أبو الوفاء. وفي الترجمات الأوروبية التي تمت لهذا الكتاب جرت محاولات لتقديم ذلك

---

(١) المقصود أبو الوفاء البوزجاني (توفي ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨م) الذي كان من العلماء المعروفين في علم الفلك والعلوم الرياضية. ويذكر كتابه المذكور أيضًا بعنوان «الزيج الواضح» و«الزيج الكامل»: موسى، أعلام الفلك، ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) تيكو براهه Tycho Brahe (١٥٤٦-١٦٠١م) فلكي داناركي صمّم العديد من الآلات والأجهزة الفلكية، وانتقل إلى براغ في ١٥٩٩ حيث حظي برعاية الإمبراطور رودولف الثاني وترك في مرصده هناك كل ملاحظاته لتلميذه يوهانس كبلر: The New Encyclopaedia Britannica,vol.2,London 1995,pp.459-460.

المقطع بشكل خاطئ، إلا أن الحقيقة معروفة ولا يمكن إخفاؤها. ولهذا السبب فإن الباحثين والمكتشفين الحقيقيين سيعرفون الحقيقة كاملة مع أن الأوروبيين يخلطون كنوز المدنية الإسلامية. ومع أنه في عصر علماء المسلمين، الذين كانوا مرشدين حقيقيين لعلماء اليوم، لم يتم اختراع التلسكوب ولا الميكروسكوب - اللذين كانا من الأهمية بمكان بالنسبة لعلم الفلك وعلم التنجيم - إلا أن علماء المسلمين توصلوا بدون هذين الاختراعين إلى اكتشافات مذهلة. ولا يوجد اليوم من ينفي أن هذه الاكتشافات في علم الفلك وعلم التنجيم تعود إلى العلماء المسلمين.

مع أبي الوفاء انتهى في المشرق عصر الاكتشافات والاختراعات في علم الفلك وعلم التنجيم، التي كانت قد تقدمت كثيرًا بفضل رعاية الخلفاء العباسيين. أما بعده فيستحق هارون بن علي الإشارة إليه؛ حيث إنه سعى إلى المزيد من تقدم المعارف السابقة بفضل مهارته في وضع الجداول الفلكية والأدوات التي كان يستخدمها لرصد النجوم وقياس المسافات بينها.

## [تطور علم الفلك في الدولة الفاطمية]

انفصلت مصر عن الخلافة في بغداد، وأصبحت مركزًا لدولة الفاطميين في القرن الخامس الهجري[1]. وقد أخذ الفاطميون بسياسة العباسيين في تقريب أشهر العلماء، وبذلك بدؤوا جهودهم في تطور وتقدم العلوم والمعارف. ففي عهد كل من الخليفة عبد العزيز[2] والخليفة الحاكم[3] اجتمع هناك أشهر العلماء، وخاصة بعد اكتشافات واختراعات العتقي وابن يونس، الذين أصبحت لهم مكانة معتبرة وشهرة كبيرة.

---

(١) الصواب أن مصر أصبحت مركزًا للدولة الفاطمية في منتصف القرن الرابع الهجري، وبالتحديد بعد أن قام جوهر الصقلي بفتح مصر في ٣٥٨ هـ باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي انتقل إلى المدينة الجديدة التي بناها الصقلي (القاهرة) في ٣٦٢ هـ واتخذها عاصمة له.

(٢) المقصود نزار بن المعز لدين الله الذي تلقب بـ«العزيز بالله» بعد توليه الخلافة الفاطمية في ٤ ربيع الآخر ٣٦٥ هـ وتوفي في ٢٨ رمضان ٣٨٦ هـ. كان يتميز بمعرفته لعدة لغات ونظمه للشعر واهتمامه بالعلم: غالب، أعلام الإسماعيلية، ص ٥٧٧-٥٨٢.

(٣) المقصود منصور بن المعز لدين الله الذي تلقب بـ«الحاكم بأمر الله» بعد توليه الخلافة في رمضان ٣٨٦ هـ، بنى الجامع الأزهر ودار الحكمة في القاهرة، وخرج من قصره ليلة ٢٧ شوال ٤١١ هـ ولم يعد: غالب، أعلام الإسماعيلية، ص ٥٤٨-٥٥٤.

وكان ابن يونس قد أثبت تفوقه في علم الفلك. فمع اختراعه لساعة جرسية ولجهاز مراقبة ومتابعة الأجرام السماوية تمكّن من أن يصل إلى المكانة التي كان يحتلها أبو الوفاء. فخلال عمله في مرصده الذي أقامه في جبل المقطم ومع تجاربه الكثيرة حول الأجرام السماوية، تمكن من أن يؤلف كتابًا شاملاً بعنوان «الزيج الحاكمي»، الذي حلّ محلّ «المجسطي». فمع كتابه هذا لم تعد هناك من قيمة لما كان قد وضعه علماء بغداد من شروح وحواشٍ وتعليقات على «المجسطي». وهكذا فقد أصبح كتابه يدرّس في كل مكان بالعالم الإسلامي وترجم إلى اللغة الفارسية من قبل العالم المعروف عمر الخيام، كما ترجمه قارق قوقا إلى اللغة اليونانية وكو شو كنغ إلى اللغة الصينية. ولم يتمكن نصير الدين الطوسي من تأليف كتابه «الزيج الحامي» بأمر من هولاكو خان إلا بعد أن اطلع على كتاب ابن يونس.

ويخبرنا ابن النبطي خلال رحلته إلى مصر في نهاية القرن الخامس الهجري أنه وجد في مكتبة القاهرة ستة آلاف مجلد في علم الفلك، كما وجد كرتين سماويتين الأولى لبطليموس والثانية لعبد الرحمن الصوفي[1].

---

(١) الصحيح أن السنبدي، الذي كان يقيم في القاهرة سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠ م قد ذكر أن الصوفي قد صنع كرة سماوية كانت موضوعة في المكتبة مع كرة سماوية أخرى من صنع بطليموس: ل.أ. سيديو، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة (دار إحياء الكتب العربية) ١٩٤٨، ص٤٠٢.

ويعتبر الحسن بن الهيثم أعظم عالم وجد في الدولة الفاطمية بعد ابن يونس؛ حيث إنه خلّف أكثر من ثمانين مؤلفًا. ومن بين أعماله لدينا تعليق له على كتاب «المجسطي» وتعليق آخر على كتاب «المقدمة» لإقليدس، كما ألف كتابًا جميلاً في مجال البصريات[١]. وقد ألّف أيضًا كتابًا يشتمل على دراسات مفصلة ومختلفة في علم الفلك، إلا أن هذا الكتاب فُقِد للأسف؛ مما يشكل خسارة كبيرة[٢]. ومن كتبه المهمة أيضًا كتاب عن علم الهندسة بعنوان «المسائل الهندسية»[٣].

(١) المقصود «كتاب المناظر» الذي يعتبر من أشهر مؤلفاته في البصريات.

(٢) لابن الهيثم حوالي ثلاثين مؤلفًا في علم الفلك، وليس من الواضح عن أي واحد منها يتحدث ش. سامي.

(٣) المقصود هنا مؤلفه «كتاب في تحليل المسائل الهندسية».

## [تطور علم الفلك في المغرب والأندلس]

في المغرب والأندلس ظهرت المؤلفات العلمية للمدنية الإسلامية في وقت لاحق بالمقارنة مع المشرق، إلا أنها لم تكن لتقل عنها في المستوى. ففي قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومرسية كانت المدارس والجامعات والمحافل العلمية والمكتبات الكبرى مليئة بالمؤلفات في كل مجال، وكانت تنافس من حيث المستوى ما كان موجودًا في مدارس ومكتبات بغداد وشيراز وسمرقند ونيسابور ودمشق والقاهرة. ولكن للأسف حين تعرضت الشعوب الإسلامية لنهاية مفجعة فإن معظم مؤلفات المدنية تلاشت، ولم يعد في وسع الأجيال اللاحقة أن تستفيد منها، ولا أن يعرف الناس بمستوى المدنية الإسلامية.

وكان علماء المغرب من أمثال ابن زرقلة ومسلمة المغرب وعمرو بن خلدون[1] ويعقوب بن طارق وابن أبي ثلتة وابن المسيح وجبر بن فلاح وابن رشد وغيرهم، كانوا وراء تقدم المدنية الإسلامية إلى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه.

---

(١) المقصود هنا عمرو بن خلدون الحضرمي (توفي ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) الذي كان إمام الرياضيين في الأندلس في عصره ومن علماء الفلك المعروفين: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، النجف (المكتبة الحيدرية) ١٩٦٧، ص٩٠.

وكان مسلمة المغرب[1] قد اختصر كتاب البتاني وألّف كتابًا جديدًا اعتمد عليه لاحقًا «أزياج ألفونسو»، الذي كان أول كتاب من نوعه في اللغة اللاتينية. أما ابن ثلتة فقد قضى ثلاثين سنة وهو يقوم بالبحث والتجارب العلمية الفلكية. وقد ألّف الكثير من الدراسات العلمية حول اقتراب وابتعاد الشمس عن الأرض وحول مدى تأخرها كل سنة حتى تصل إلى السمت.

وقد توصل العالم المذكور إلى أن تأخر الشمس خلال سنة يصل إلى حوالى ٤٩-٥٠ درجة، وهو ما تمكّن العلم في أيامنا هذه من تأكيده بدقة حيث توصل إلى أن التأخر يصل إلى ٥٠ درجة. أما ابن زرقلة فقد أنشأ لنفسه مرصدًا حتى يقوم بتجاربه. وحسب ما يقوله المقّري فإن الساعات التي اخترعها وشغّلها هذا العالم قد أدهشت كل مدينة طليطلة. ومع أن معظم مؤلفاته فقدت ولم تصل إلينا إلا أن الترجمات الأوروبية لبعض مؤلفاته الموجودة في المكتبات الأوروبية تدلّ على المستوى الرفيع لأعماله، وتؤكد على مدى الخسارة التي حصلت للعالم المتمدن بفقدان مؤلفاته الأخرى. ويذكر ابن أذري، الذي كان يجلّ ويقدّر كثيرًا ابن زرقلة، أنه لم يتمكن من فهم أن الشمس في مركز العالم ولكنه أدرك أن الشمس لا يمكن أن تدور حول الأرض، بل افترض أن الشمس يمكن أن تدور حول كوكب آخر.

---

(١) المقصود هنا مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي (توفي ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٧م)، وكان من أعلام إشبيلية في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٧٠-٧١.

أما ابن رشد فقد عاش في الأندلس خلال القرن السادس الهجري، وساهم بأعماله في تقدم علم الفلك والطب والفلسفة؛ حيث ترك مؤلفات مهمة في كل مجال من هذه المجالات. وبشكل خاص كان يمثل في الفلسفة والصوفية مدرسة خاصة. وقد وضع ابن رشد أيضًا تعليقًا مفصلاً على كتاب «المجسطي». وقد لاحظ ابن رشد بقعة سوداء على كوكب الشمس، وحين درس ذلك بعناية أدرك أن ذلك يحدث بالضبط في الوقت الذي يمر فيه عطارد بين الشمس والأرض. ومع هذا الاكتشاف أوضح أن جزءًا من كسوف الشمس إنما يعود إلى هذا السبب.

ولدينا الكثير من العلماء في الأندلس الذين وضعوا الكثير من المؤلفات في مختلف المجالات العلمية، إلا أن معظم مؤلفاتهم فقدت ولم تصل إلينا. ولكن لا نجد لدى الشعوب الإسلامية التي طردت بالقوة من مواطنها، أو التي نجت من الأحداث المفجعة التي لحقت بها من حين إلى آخر، ما وجدناه لدى علماء المشرق من اكتشافات واختراعات. ولفهم هذا الأمر هناك حاجة للمزيد من الإيضاحات والتفسيرات المفصلة.

# [تطور علم الفلك في المغرب الأقصى]

مع أن فاس أو مراكش تقع في أقصى شمال إفريقيا إلا أن هذه الدولة لم تكن بعيدة عن المدنية الإسلامية العامة. فقد كانت مدنها طنجة وفاس ومراكش منافسة لقرطبة وإشبيلية وغرناطة في الأندلس. ومن أشهر علماء المغرب، كما تسمى الآن، كان البطروجي[1] وأبو الحسن[2] اللذان وصلت مؤلفاتهما إلى الأجيال اللاحقة على الرغم من مصائب الدهر. وكان الأول منهما معاصرًا لابن رشد. وقد اشتغل البطروجي في علم الفلك وعلم التنجيم وتوصل إلى أن كل الأجرام السماوية تدور حول الأرض بدون مسارات. ومع أنه لم يتمكن من اكتشاف الحقيقة إلا أنه أدرك كابن زرقلة على الأقل أن كوكب الأرض لا يمكن أن يكون مركز الكون، وهو بذلك فتح الطريق لاكتشافات جديدة.

---

(١) المقصود نور الدين البطروجي الإشبيلي (توفي ٦٠٠هـ/١٢٠٤م)، اشتهر بكتابه «الهيئة» الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع في البندقية عام ١٥٣١: الموسوعة العربية، ج ٥، دمشق ٢٠٠٢، ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) الصحيح أبو علي الحسن المراكشي الذي يعتبر من علماء المغرب في الفلك والرياضيات خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي: موسى، أعلام الفلك، ص ٢٣٨-٢٣٩.

أما أبو الحسن الذي عاش في القرن السابع الهجري، والذي تميز بمعرفة واسعة في علم الفلك وعلم التنجيم وتجول في أرجاء الأندلس وشمال إفريقيا، فقد توصل إلى اكتشافات جديدة وضبط الطول والعرض للكثير من المدن. وبالإضافة إلى ذلك فقد سجل الكثير من الحقائق وأجرى التجارب وساهم كثيرًا في علم الجغرافيا الرياضية بمؤلفه «المبادئ والمقاصد»[1]. وقد ترجم هذا الكتاب قبل عدة سنوات إلى اللغة الفرنسية، وعرف الأوروبيون الكثير من الأمور التي لم تكن معروفة حتى الآن، وبذلك أضيفت للمدنية الأوروبية معلومات جديدة.

وقد تخلى العلماء المسلمون آنذاك عن المعيار السابق في احترام كل فكرة وردت لدى السابقين. وهكذا فقد تخلوا عن مدرسة وآراء بطليموس وصححوها بالكامل. ومع رفضهم لكون الأرض مركز الكون فقد فتحوا الطريق بذلك لكوبرنيكوس لكي يصل إلى اكتشافه الكبير.

---

(١) المقصود «كتاب جامع المبادئ والغايات» الذي اعتبره حاجي خليفة «أعظم ما صنّف في هذا الفن»: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٧٢.

## [تطور علم الفلك حتى الدولة العثمانية]

بعد القرن السادس الهجري دخلت الدول الإسلامية في مصر وآسيا في موجات متلاحقة من الحرائق وسفك الدماء، كما أوضحنا في السابق. فبعد الغزنويين والسلاجقة والفاطميين انهارت الخلافة في بغداد على يد المغول. أما في مصر فقد جاء الأيوبيون إلى الحكم بعد الفاطميين.

وفي هذه الحالة لم تعد الدول الإسلامية قادرةً على الاهتمام بخدمة العلوم والمعارف كما كانت في عهد الخلفاء العباسيين، ولكن هذا لم يكن يصل إلى تجاهل العلماء والتراث وخدمة المعارف في تلك الظروف الصعبة. ولذلك فقد وجد الكثير من العلماء حتى في تلك الظروف الصعبة. فمن أهم العلماء في القرن السادس الهجري كان ابن سينا والكزيري وفتحي بن نجبة والتنوخي وحسن بن مصباح ومحمد بن عامر الفرقان وغيرهم. أما في القرن السابع الهجري فقد ظهر علماء آخرون تميزوا بإسهاماتهم في مختلف العلوم مثل التفيكي في دمشق وعبد الله بن شاكر بن علي بن مطهر المديني في أصفهان وأبي أحمد الغزالي وهبة الله الحسني في بغداد، بينما برز في القرن الثامن الهجري أبو حنيفة في أصفهان ومبشر بن أحمد في بغداد ونصير الدين الطوسي في خراسان .. إلخ.

في ذلك الوقت كانت كل الدول الإسلامية قد سقطت في يد المغول والتتار والأتراك غير المتمدنين. وقد تمكّن هؤلاء الفاتحون من إخضاع الشعوب المتمدنة في الدول التي احتلوها، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يقضوا تمامًا على مدنية تلك الشعوب. وحين رأى هؤلاء أن الشعوب التي خضعت لهم متقدمة كثيرًا عليهم في العلم والمعرفة والمدنية اضطروا إلى أخذ دين ولغة ومدنية الشعوب التي أخضعوها. وهكذا فإن المدنية الإسلامية لم تخسر في مثل هذه الكوارث الكبرى بل كسبت أكثر مع الحكام الجدد. فقد عبّر السلطان محمود الغزنوي عن احترامه وتشجيعه للعلماء، واحتفى في بلاطه بالعالم الكبير البيروني. وكذلك الأمر كان مع جلال الدين ملكشاه السلجوقي الذي تحول بلاطه إلى محفل للعلماء. وقد عيّن العلماء في إدارة الدولة، كما أن التقويم الجديد الذي اكتشف آنذاك منح اسمه «تاريخ جلالي».

أما هولاكو ابن جنكيز خان فقد أصبح بعد اعتناقه الإسلام مهتمًّا بتقدم العلم والمعرفة والمدنية الإسلامية[1]، وقد عهد بكافة الأمور إلى نصير الدين

---

(١) الصواب أن هولاكو ابن طولوي خان أصغر أبناء جنكيز خان، أي أنه حفيد جنكيز خان وليس ابنه، كما أنه لم يعتنق الإسلام بل هو الذي قاد الجيش المغولي ليحاصر بغداد ويدمرها في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م لينهي بذلك الخلافة العباسية. وفي الواقع بدأ اعتناق المغول للإسلام مع الخان بركة الذي خلف في ١٢٥٦م الخان باتو حفيد جنكيز خان على رأس «الأورطة الذهبية» التي امتدت حتى حوض الفولغا، ما أدى إلى صدامه مع هولاكو الذي كان يتوجه إلى بغداد وإرسال قوات لتشارك مع الدولة المملوكية في معركة عين جالوت: برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى ومراجعة د. سهيل زكار، دمشق (دار حسان) ١٩٨٢، ص ٥٠-٥٢.

الطوسي الذي كان يرافقه باستمرار[١]. وأما الابن الأكبر لجنكيز خان قبلاى فقد أوصل المدنية الإسلامية إلى الصين. ولأجل أن ينشر العلوم والمعرفة هناك فقد أخذ معه العالم الكبير جمال الدين[٢]. ومن ناحية أخرى فقد قام السلطان المملوكي محمد بن قلاوون برعاية أشهر العلماء في دمشق. ومن هؤلاء الذين حظوا برعايته كان ابن الشاطر[٣]، الذي اشتغل في علم الفلك ووضع الجداول الفلكية بالاستناد إلى ما ورد عن سابقيه.

ومع أن السلاطين العظام للدولة العثمانية كانوا مشغولين دائمًا بالفتوحات وتوسيع الدولة إلا أنهم لم ينسوا ولم يتجاهلوا العلوم والمعارف، بل إنهم كانوا يرعون العلماء ويقربونهم باستمرار. ومن ناحية أخرى فقد قام حفيد تيمورلنك، أولوغ بك، ببناء مرصد في سمرقند وزوده بأجهزة عديدة ذات مقاسات كبيرة. وكان أولوغ بك نفسه يشتغل في علم الفلك وألف كتابًا يدل على سعة أفقه ومدى ذكائه وعلمه.

---

(١) كان الطوسي في قلعة ألموت تحت رعاية الإمام الإسماعيلي ركن الدين شاه حين تعرضت للهجوم المغولي في ٦٥٤هـ/١٢٥٦م. وقد قدّره هولاكو وعيّنه وزيرًا له وبنى له مرصد مراغة المشهور، ولذلك يبدو أن ش. سامي قد اختلط عليه الأمر حول إسلام هولاكو نظرًا للمكانة التي احتلها الطوسي لديه: مصطفى غالب، أعلام الإسماعيلية، بيروت (دار اليقظة العربية) ١٩٦٤، ص ٥٨٧-٥٨٨.

(٢) الصواب أن قبلاي خان هو ثاني أبناء طولوي خان السابق ذكره، والذي تولى عرش الإمبراطورية المغولية في عام ١٢٥٩م. وقد أعلن نفسه في ١٢٦٠م خانًا وإمبراطورًا ووريثًا لأباطرة الصين، واتخذ من مدينة بكين المهجورة عاصمة له. تميّز بالانفتاح على الأديان الأخرى حتى أنه أمر بترجمة أجزاء من القرآن والإنجيل والتوراة إلى الصينية: الموسوعة العربية، ج ١٥، دمشق ٢٠٠٦، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) المقصود ابن الشاطر الدمشقي (توفي ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥-١٣٧٦م) الذي اشتهر بصنع الأدوات الفلكية وترك عشرات المؤلفات العلمية: موسى، أعلام الفلك، ص ٢٤٨-٢٥٧.

## [آخر إنجازات علم الفلك]

لقد انتصرت الشعوب غير المتمدنة التي اجتاحت العالم الإسلامي من الشرق ومن الشمال بقوة السلاح، ولكنها هزمت أمام علوم ومعارف المدنية الإسلامية. إن هذا في حد ذاته دليل قوي وكاف على مدى تطور وقوة المدنية الإسلامية.

وقد مرّ بنا كيف أن السلطان محمود الغزنوي اهتم بالبيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد) الذي كان ضليعًا في كل علم، وحرص على أخذه معه في حملته على الهند لكي يجمعه مع علماء الهند. وقد رغب البيروني في أن يكسب شيئًا من العلوم والمعرفة التي تختص بها الهند، ولكنه عندما رأى أن مستوى العلوم في الهند متخلف قدّم لهم ما توصل إليه علماء بغداد من اكتشافات واختراعات، كما قدّم لهم ترجمات للمؤلفات اليونانية. وقد أدى هذا إلى أن تصل المدنية الإسلامية إلى الهند وتنتشر فيها. ويعتبر البيروني إمام علماء المشرق والمغرب في علم الفلك والجغرافيا والرياضيات. وقد كانت مؤلفاته في كل علم من هذه العلوم مرشدًا رئيسيًّا في العالم الإسلامي.

أما الخيّام(١) وعبد الرحمن الخازن، اللذان كانا تحت رعاية ملكشاه السلجوقي، فقد تمكنا بما كان لهما من معرفة وبما قاما به من تجارب فلكية أن يصححا التقويم السنوي الإيراني، وأن يضعا تقويم «الجلالي».

وكما هو معروف فإن النظام الشمسي الذي استخدمه اليونانيون كانت له نقائص؛ لأنه كانت تزيد فيه دقائق في كل سنة. وقد اكتشف عمر الخيام وعبد الرحمن الخازن هذا الخطأ، بينما لم يكتشفه الأوروبيون إلا في وقت متأخر. وهكذا فقد وضع هذان العالمان التقويم السنوي المعروف باسم «الجلالي»، الذي لا يختلف كثيرًا عن التقويم الإفرنجي (الغربي) الحالي(٢).

أما نصير الدين الطوسي، الذي كان أشهر العلماء الموجودين في بلاط هولاكو ابن جنكيز خان، فقد تشجع بعدما رأى احترام هذا الحاكم له وقام بإنشاء مرصد مجهز بكل احتياجاته من الأجهزة، وجمع المؤلفات العلمية من خوارزم ودمشق وبغداد والموصل ليؤسس مكتبة كبيرة. وقد صنع الكثير من الأدوات والأجهزة التي تتعلق بقياس الأجرام السماوية والعلوم الرياضية والفيزيائية

(١) المقصود عمر الخيام (توفي ٥١٧هـ/ ١١٢٣م) الذي شاعت شهرته كشاعر وفيلسوف ولكنه كان معروفًا أيضًا بين علماء الفلك، وله إسهامات قيمة في هذا المجال: موسى، أعلام الفلك، ص ٢٠٨.

(٢) يرد في المصادر أن السلطان ملكشاه قد استدعى الخيام، ويقال إنه كان أحد الثمانية الذين انتدبوا لتعديل التقويم السنوي ونجح في ذلك نجاحًا باهرًا. وكان تقويم الخيام أدق من غيره ويقارب في دقته التقويم الغريغوري، وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه أدق من التقويم الغريغوري الذي يؤدي إلى خطأ يوم كل ٣٣٣٠ سنة، بينما الخطأ في تقويم الخيام هو يوم كل ٥٠٠٠ سنة: موسى، أعلام الفلك، ص ٢٠٨.

بالاستناد إلى اكتشافات السابقين وبمساعدة العلماء من أمثال محيي الدين الدمشقي وفخر الدين الإراتي التفليسي ونجم الدين القزويني وفخر الدين مراج الموصلي ومحيي الدين المغربي وغيرهم. وقد انشغل الطوسي ١٢ سنة لكي يؤلف كتابه «الزيج الخاني»[١]. ومع أن هذا الكتاب يستعرض آراء عامة إلا أنه يفهم منه أن الكثير مما ورد فيه مأخوذ من «الزيج الحاكمي» لابن يونس مع بعض التعديلات عليه. ومع أنه انتقد كثيرًا إلا أن هذا الكتاب كانت له قيمة. فقد أُدْخِلت عليه تعديلات مقبولة من قبل علي شاه البخاري ونجم الدين النبطي وغياث الدين جمشيد بن سعد الخطيب[٢] مما جعله مقبولاً للتدريس في كل مدارس الدول الإسلامية حتى القرن الثامن الهجري، أي إلى أن ظهر كتاب «الأزياج» لابن الشاطر.

ومع أن ابن جنكيز خان حكم إيران إلا أنه ساعد بشكل ما على تقدم المدنية الإسلامية. فقد قام أخوه قوبلاى خان بفتح الصين، وتمكن بمساعدة العالم المعروف جمال الدين من أن يوصل المدنية الإسلامية إلى عاصمة الصين. فقد تمكن هناك بمساعدة كو شو كنغ من ترجمة ونشر المؤلفات الإسلامية باللغة الصينية مثل «الأزياج الحاكمية» لابن يونس وغيره.

---

(١) الصواب «الزيج الإيلخاني» الذي يعتبر من أهم مؤلفات الطوسي: موسى، أعلام الفلك، ص ٢٣١.

(٢) الصواب غياث الدين جمشيد بن مسعود الكاشي، الذي أكمل ما ورد في هذا الزيج ليضع بدوره «الزيج الخاقاني»: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ٩٦٨.

وقد حّقق ابن الشاطر، الذي يعود بأصله إلى دمشق، شهرة كبيرة بعد نصير الدين الطوسي حتى أن مؤلفاته التي صنّفها كانت تدرس في كل المدارس. ومع أن شمس الدين الحلبي وشهاب الدين أحمد بن جمال الدين بن الحسيبي وابن زين الخير حاولوا بما صنّفوه أن يتجاوزوا ابن الشاطر، إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك. فقد بقيت مؤلفات ابن الشاطر تحظى بالاحترام والشهرة كما في السابق.

وفي الوقت الذي كان فيه ابن الشاطر منشغلاً في دمشق بالبحث والدرس والتأليف ظهر فاتح جديد من تركستان ألا وهو تيمور لنك، الذي كرّر ما قام به جنكيز خان. ومع أنه قضى على كثير من مؤلفات المدنية الإسلامية ودمّر الكثير من الحواضر إلا أنه اشتهر باهتمامه بعلم الفلك والفلسفة والعلوم الأخرى. وفي الواقع لم يكن تيمور لنك بعيدًا عن ذوق المدنية الإسلامية لأنه مع تدميره لبعض الحواضر فقد قام بإحياء حواضر أخرى وملأها بالمؤلفات العلمية والمنجزات المدنية مثل سمرقند التي اختارها عاصمة له. ولكن بعد موته خرجت من سيطرة ولده الكثير من الدول التي احتلها؛ حيث إن ولده شاه روح كان منشغلاً بالملذات الدنيوية ولذلك نقل العاصمة إلى هرات لكي يتفرغ لحكم المناطق التي بقيت تحت حكمه. أما ابنه أولوغ بك، الذي كان منذ طفولته مهتمًّا بتعلم الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك، فقد استأذن والده للبقاء في سمرقند لكي يستمر هناك في البحث في هذه العلوم. وقد بنى هناك مرصدًا كبيرًا وجهزه بمختلف الأدوات والأجهزة الضرورية، وانشغل طويلاً بأبحاثه وتجاربه في علم

الفلك. وقد صنّف في هذا المجال كتابًا متكاملاً لكي يترك باسمه ذكرًا دائمًا للإنسانية[١]. كان مرصده الذي بناه في سمرقند يرتفع مئة قدم، أي بارتفاع قبة آيا صوفيا. ولكن أولوغ بك لم يخترع بنفسه أجهزة المرصد ولا طريقة بنائه؛ لأن هذه - كما ذكرنا سابقًا - كان قد اخترعها العلماء المسلمون في وقت سابق. ومع ذلك يجب ألا نقلل من أهمية ما قام به أولوغ بك للمدنية الإسلامية؛ حيث إنه بنى مرصدًا لم يكن له مثيل حتى ذلك الوقت. ومع أنه كان أميرًا وحفيدًا لفاتح العالم إلا أنه قضى كل حياته في المعرفة، لأنه كان يعتبر الاشتغال بالمعرفة تشريفًا وتعظيمًا للمرء.

وقد جمع أولوغ بك حوله بعض العلماء المعروفين مثل حسن جلبي المعروف باسم قاضي زاده وغيث مليح الدين جمشيد وعلي بن محمد كشجي. وقد قام ابن قاضي زاده مرم جلبي بوضع تعليق له على كتاب أولوغ بك.

وبعد قرن ونصف ظهر العالم المشهور كبلر[٢]، الذي كانت له آراء مشابهة لأولوغ بك في علم الفلك. ونظرًا لأنه أثبت أن الشمس لا تدور بل إن الأرض هي التي تدور فيمكن القول إنه كان التلميذ الأخير لجامعة بغداد.

(١) المقصود «الزيج السلطاني» أو «الزيج الكوركاني» الذي وضعه بالتعاون مع الفريق العامل معه (قاضي زاده الرومي وجمشيد الكاشي)، وهو ما وضّحه بجلاء حاجي خليفة: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ٩٦٥.

(٢) المقصود هنا يوهانس كبلر J.Kepler (١٥٧١-١٦٣٠)، العالم الألماني الذي دخل التاريخ بـ «قوانين كبلر الثلاثة»: جميع الكواكب تدور حول الشمس في مدارات بيضاوية، مسافة الكوكب إلى الشمس تلعب دورًا في تحديد سرعته، تحديد النسب بين الكواكب المختلفة بالقياس إلى بُعْدها عن الشمس.

## علم الرياضيات

لقد شرحنا حتى الآن تطور وتقدم علم الفلك على يد العلماء المسلمين، ولكن العلماء المسلمين كان عليهم أيضًا أن يهتموا ويطوروا علم الرياضيات لأجل المزيد من التقدم لعلم الفلك. وقد حقق العلماء المسلمون في ذلك نجاحًا كبيرًا حتى أنهم يستحقون أن يُطلق عليهم مخترعو علوم الرياضيات. وقد أخذ الأوروبيون علوم الرياضيات عن العلماء المسلمين، ولم يضيفوا إليها إلا القليل.

ولم يقتصر إسهام العلماء المسلمين على علوم الرياضيات، وبالتحديد على الجبر والهندسة، التي اخترعوها من جديد تقريبًا بل إنهم طبّقوها في علم الميكانيكا والبصريات. وكانت مؤلفات هيرون واكسببيوس حول الآلات الجوية والمائية قد ترجمت إلى اللغة العربية في بداية المدنية الإسلامية.

وكان الحسن بن الهيثم، الذي ورد ذكره سابقًا، قد صنّف عدة مؤلفات تتضمن الكثير من المعلومات والاختراعات عن البصريات مثل «الرؤية المستقيمة»

و«الرؤية المنعكسة» و«الرؤية المنكسرة» و«المرايا المحرقة» وغيرها. كما أن الخازن، الذي ورد ذكره سابقًا، قد ألّف كتابًا كاملاً حول البصريات يتضمن معلومات شاملة ومفصلة حول انكسارات النظر والضوء، ومكان المادة التي تنعكس في المرآة، وعن كيفية إرسال المرآة المحمّاة للحرارة، وحول الأحجام الكاذبة للأشياء التي تبدو في عدة مواقع، وعن السبب في أن الشمس والقمر يبدوان في حجم أكبر حين يكونان في الأفق ... إلخ.

وهكذا فإن المهندس البولوني فيتلو[١]، الذي كان أول أوروبي يكتب عن البصريات، لم يضف جديدًا إلى ما جاء عند الخازن[٢]. وقد انشغل طويلاً عدة علماء أوروبيين مثل اسلوتش وهايكنز[٣] وباروفو[٤] دون أن يتوصلوا إلى شيء في مسألة علمية كان قد طرحها وحلّلها الخازن، إلى أن تمكن من التوصل إلى حل لها مارك سيمبسون. ومع أنه من المعروف ما تراه العين من الجسد إلا أنه قام

(١) فيتلو عالم بولوني اعتمد كثيرًا على كتاب «المناظر» لابن الهيثم في تأليف كتابه المذكور (الذخيرة). ويعترف العالم الأوروبي دو لابورتا بأن «هذا الكتاب المنقول عن العربية لبث مرجع أهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى»: محمد غريب جودة، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، القاهرة (مكتبة ابن سينا) ٢٠٠٤، ص ١٥٠.

(٢) يبدو لدينا هنا خلط بين الخازن الذي ورد ذكره سابقًا وبين الحسن بن الهيثم؛ لأن الحسن بن الهيثم اشتهر عند الأوروبيين باسم Alhazen الذي يمكن أن يقرأ أيضًا «الخازن». وفي هذه الحالة بالذات فإن العالم البولوني قد اعتمد كثيرًا على كتاب «المناظر» لابن الهيثم، كما يوضح د. جودة في كتابه المذكور: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٣) كريستيان هايكنز (١٦٢٩-١٦٩٥) عالم دانماركي تميز بأبحاثه في الضوء واشتهر بـ«نظرية هايكنز الموجية».

(٤) إسحق بارو I. Barrow (١٦٣٠-١٦٧٧) لاهوتي وعالم رياضيات بريطاني اهتم بالبصريات ودرّسها في جامعة كمبردج خلال ١٦٦٩، وكان من طلابه إسحق نيوتن:

The New Encyclopaedia Britannica, vol.1, London 1995, pp. 918-919.

بتجربة للانعكاسات على مرآة مدورة لكي يثبت مركزها، وهو ما يُناقش ويُحلل في الهندسة.

وكان العلماء المسلمون قد أخذوا الرياضيات والهندسة من اليونانيين ولكنهم اخترعوا الجبر بأنفسهم تقريبًا، ولذلك أطلقوا عليه اسم «الجبر والمقابلة».

وليس من الصحيح أن العرب أخذوا هذا العلم من الهند، لأن الهنود كانوا قد أخذوا فقط بعض الاختراعات اليونانية عن طريق النساطرة واعترفوا بأنه ليس لديهم إنجاز علمي خاص بهم. ومن الممكن أن العلماء المسلمين أخذوا الأرقام من الهند، ولكنهم حسّنوها وطوروها في عدة أشكال. وهكذا فإن الأرقام التي كان يستخدمها العلماء العرب في المغرب والأندلس هي نفسها التي تستعمل الآن في كل أرجاء أوروبا. ولذلك حتى لو لم يكن المسلمون هم الذين اخترعوا الأرقام إلا أنهم حملوها ونشروها.

وكان عصر المأمون، الذي ورد ذكره سابقًا، قد شهد ترجمة المؤلفات اليونانية في علوم الرياضيات لكل من إقليدس وتيودوس وإفليونيوس وهبسيكلوس فيلاوس وغيرهم. وقد أغنى العلماء المسلمون هذه الترجمات بالحواشي والتعليقات والملاحظات الإضافية ثم تحولوا لكتابة مؤلفات جديدة أسهمت في تقدم هذه العلوم ووضعت قواعد جديدة في الجبر والهندسة. وقد حاول الأوروبيون منذ زمن أن يتوصلوا إلى الترجمات العربية التي أنجزها العلماء

المسلمون للمؤلفات اليونانية في علوم الرياضيات وأن يستفيدوا منها؛ لأن العلماء المسلمين قد خدموا هذه النصوص بحفظها لتصل إلى الأجيال اللاحقة ثم باكتشاف قواعد ومسائل علمية جديدة لم تكن لتخطر على بال العلماء اليونانيين. ونظرًا لأهمية مصطلحي المثلث قائم الزاوية والمثلث الكروي بالنسبة إلى علم الفلك فيمكن القول إن العلماء المسلمين هم من أرسوا الأساس لهذه العلوم. وتدل مؤلفات كبار علماء المسلمين في الرياضيات والميكانيكا لابن الهيثم وسنجار ومظفر أسفر الدين وابن رشد وغيرهم، والتي لاتزال موجودة، وكذلك مقالات أبي الوفاء التي تصلح للنشر الآن في المجلات العلمية، على المستوى الرفيع الذي وصلت إليه علوم الرياضيات في العالم الإسلامي. ومن مخترعات العلماء المسلمين في الرياضيات والجبر الإشارة إلى المجهول بحرف (س)، وكذلك الكثير من الإشارات في الجبر والرياضيات.

ويمكن القول إن ما قام به علماء بغداد من اختراعات أسهمت في تقدم علوم الرياضيات إنما نجده في كتاب البتّاني، الذي يلخص مؤلفاتهم. إلا أن علوم الرياضيات تقدمت أكثر بعد البتّاني وذلك على يد محمد بن موسى وأبي الوفاء وابن يونس وأبي الحسين علي وابن الهيثم وغيرهم. إلا أن معظم مؤلفات هؤلاء لم تعد موجودة. وحتى تلك المؤلفات الموجودة لم يطلع عليها الأوروبيون، ولذلك فإن إنجازات الشعوب الإسلامية في تطور وتقدم علوم الرياضيات لم تكتشف بالكامل.

وكان العالم محمد البغدادي قد ألّف كتابًا كاملاً حول القواعد العلمية لقياس سطح الأرض ووضع الخرائط لها، بالإضافة إلى عدد من المسائل العلمية التي تتعلق بقياس وتقسيم الأبعاد. وقد وضع القسم الأخير منه بنفسه. ولايزال العلم إلى اليوم يقبل ويستخدم دروس وطرائق هذا العالم.

وبالاستناد إلى هذا التقدم الحاصل في علم الهندسة وعلم الميكانيكا في العالم الإسلامي فقد تم اختراع الأجهزة المختلفة لتحديد الوقت وتقسيم سطح الساعة إلى دقائق. وفي الواقع أن هذا من إنجازات العلماء المسلمين كما يوضح ذلك كتاب أبي الحسن المغربي.

وقد أدت ترجمة مؤلفات هؤلاء العلماء المسلمين للغات الأوروبية إلى تقدم معرفة المدنية الحالية بالعلوم الرياضية.

## علم الجغرافيا

في بداية الخلافة العباسية، حين برزت المحافل العلمية وبدأت ترجمة المؤلفات اليونانية، كانت من المؤلفات الأولى التي ترجمت كتاب «المجسطي» لبطليموس وكتابه الآخر «الجغرافيا». وكان العلماء المسلمون لا يقبلون شيئًا دون أن يتحققوا منه ويثبتوه، ولذلك أرادوا أيضًا أن يتحققوا ويتأكدوا من هذا العلم. وقد تشكلت آنذاك مجموعة من العلماء قامت بتجارب في سهل سنجار، وهي ما أدت إلى تصحيح خطوط الطول والعرض وإلى تصويب ما ورد في كتاب «الجغرافيا» لبطليموس، وإضافة معلومات إليه عن الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام وإيران، وتصويب الخرائط الموجودة فيه، وصولاً إلى وضع مؤلف جغرافي كامل بعنوان «صورة الأرض»[1] مع خرائط جديدة.

---

(١) المقصود كتاب «صورة الأرض» لمحمد بن موسى الخوارزمي (توفي ٢٣٢هـ /٨٤٨م) الذي قال عنه نللينو: «مثل هذا الكتاب لا تقوم على وضعه أمة أوروبية في فجر نهضتها العلمية»: د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، القاهرة (دار المعارف) ١٩٨٤، ص ١١٢.

وكان المسيحيون في الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية قد تابعوا العمل في مجال الجغرافيا بعد بطليموس، ولكن معظمهم كان يتخيل الأرض على شكل مربع على حين أن بعضهم فقط كان يتخيلها على شكل دائرة والقدس مركز لها. إلا أن العلماء المسلمين لم يقعوا في مثل هذه الأخطاء لأنهم حالما ترجموا كتاب «الجغرافيا» لبطليموس أدركوا ما فيه من أخطاء ونواقص وقاموا فورًا بتصويب الأخطاء واستكمال النواقص. وقد قام العلماء المسلمون بذلك على ثلاث مراحل:

في المرحلة الأولى كان المسلمون أصلاً على معرفة بنصف العالم المعروف حتى ذلك الوقت، ولذلك لم تكن لديهم مشاكل في توسيع علم الجغرافيا ليشمل معارف وإثباتات واكتشافات جديدة. فالعالم الإسلامي كان يمتد من الصين إلى شواطئ المحيط الأطلسي، وفي هذه المساحة الواسعة كانت كل الطرق مفتوحة للتجارة كما أن العلاقات بين الدول الإسلامية كانت جيدة. وفي هذه المساحة الواسعة كانت الطرق الرئيسة تتمثل في أربعة اتجاهات:

١- الاتجاه الأول كان ينطلق من طنجة عبر الأندلس وأوروبا؛ حيث إنه بعد عبوره لفرنسا وألمانيا وبلاد السلاف كان يدخل ثانية في العالم الإسلامي حيث يمر عبر تركستان ويصل إلى بلخ وكابل وكشمير.

٢- الاتجاه الثاني ينطلق أيضًا من الأندلس ويعبر مضيق سبتة (جبل طارق) ليتابع طريقه عبر شمال إفريقيا، أي عبر المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب وبرقة، ويتابع عبر مصر ليصل إلى دمشق ومنها عبر حوض الفرات إلى بغداد والبصرة. ومن هذا الاتجاه كان يتفرع طريق آخر يذهب عبر بلاد فارس إلى قروان ولبوشستان ومنها إلى السند والهند.

٣- الاتجاه الثالث كان يتمثل في الطريق البحري عبر المتوسط من الجزائر إلى شواطئ الشام، ومن هناك كان يتابع عبر البر إلى البصرة، ثم عبر البحر ثانية إلى شواطئ الهند وجزر المحيط الهادئ.

٤- الاتجاه الرابع كان يبدأ أيضًا من البحر المتوسط ويمرّ عبر السويس والبحر الأحمر ليتواصل مع الاتجاه الثالث في بحر عمان والمحيط الهادئ.

فمع هذه الطرق، التي لم تكن تهدأ من حركة التجار والزوار، أصبح في وسع المسلمين أن يوصلوا المدنية الإسلامية إلى أقصى الأرجاء وأن يعزّزوا فيما بينهم الصلات التجارية والعلمية، وأن يقدموا خدمة كبيرة لعلم الجغرافيا.

وهكذا فقد تضمنت مؤلفات ابن حوقل والإصطخري والمسعودي التي برزت في القرن الرابع الهجري الكثير من المعلومات والاكتشافات الجغرافية الجديدة التي كانت تدل إلى أي حد قام العلماء المسلمون بدراسة أطراف العالم المعروف حتى ذلك الحين.

كانت هذه الاكتشافات تمثل المرحلة الأولى من إنجازات العلماء المسلمين في مجال الجغرافيا. ففي هذه المرحلة تم اكتشاف الكثير من أنحاء العالم التي لم تكن معروفة لليونانيين. ومع توسع خريطة العالم فقد تضمنت منجزات العلماء المسلمين في مجال الجغرافيا الطبيعية، الذين عرضوا ما لديهم أولاً في كتاب «صورة الأرض».

أما المرحلة الثانية في تقدم علم الجغرافيا في العالم الإسلامي فقد بدأت في القرن الخامس الهجري مع ظهور العالم المعروف البيروني. وكان البيروني، الذي كان مع أبي الوفاء وغيره من العلماء المعروفين، من القليلين الذين اشتغلوا في جامعة بغداد. ولكن السلطان محمود الغزنوي اجتذبه وأخذه معه إلى الهند عبر بلوشستان وأفغانستان وتركستان. وهكذا فقد تمكن البيروني من أن يضيف إلى ما قام به العلماء في «صورة الأرض» من تصويبات فيما يتعلق بالهند وبلوشستان وأفغانستان وتركستان وبلاد ما بين النهرين. ومع إضافة معلومات واكتشافات جديدة إلى ذلك فقد جمعها في كتاب كامل عن الجغرافيا بعنوان «القانون»[1]. وقد قام لاحقًا العالم الإيراني هوشيار باستكمال وتصويب ما ورد في هذا الكتاب.

(١) المقصود «كتاب القانون المسعودي» الذي سمّاه باسم راعيه السلطان مسعود الغزنوي، والذي يعتبر أعظم موسوعة في علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات: موسى، أعلام الفلك، ص ١٧٠-١٧١.

وكان لعمر الخيام أيضًا، الذي صوّب تقويم «الجلالي» فيما يتعلق بالأناضول، خدمة كبيرة لعلم الجغرافيا الطبيعية. ومع كتاب نصير الدين الطوسي يمكن أن نتعرف على مدى المعارف الجغرافية التي توصل إليها العلماء المسلمون فيما يتعلق بآسيا.

ومن أشهر العلماء المسلمين في هذا القرن البكري والإدريسي وياقوت الحموي. وقد ترك ياقوت الحموي معجمًا جغرافيًّا متكاملاً وضعه حسب التسلسل الأبجدي[1]. أما الإدريسي المولود في سبتة بالمغرب فقد درس في جامعة قرطبة وأقام في بلاط ملك صقلية حيث أنجز مؤلفًا جغرافيًّا متكاملاً[2]، كما قام بصنع كرة مجسمة للأرض وخريطة تمثل العالم المعروف حتى ذلك الحين وقدمها إلى ملك صقلية. وقد بقيت خريطة الإدريسي تستخدم في أوروبا عدة قرون مع ما كان يضاف إليها من تصويبات جزئية.

وعلى حين أن المرحلة الأولى شهدت تصويبات تتعلق بالمناطق المركزية للعالم الإسلامي وعرفت المرحلة الثانية تصويبات للخرائط تتعلق بالأجزاء الشرقية للعالم الإسلامي، جاءت المرحلة الثالثة لتكشف عن الأجزاء الغربية للعالم الإسلامي. فقد وضعت مؤلفات كثيرة تتعلق بإفريقيا والأندلس بالمقارنة

---

(١) المقصود «معجم البلدان».

(٢) المقصود هنا «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» أو «كتاب روجار» نسبة إلى ملك صقلية روجر الثاني الذي كان يرعاه، والذي استفاد منه الأوروبيون على مدى عدة قرون: جودة، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٩٥.

مع ما ورد في «صورة الأرض» وكتاب «القانون» للبيروني. فقد قام ابن زرقلة، الذي عاش بالأندلس في القرن الخامس الهجري، بتحديد خطوط الطول والعرض لبعض المدن في الأندلس. فقد حدّد موقع البحر الأبيض المتوسط عند الدرجة ٤٢ بينما كانت هذه ٦٢ في «المجسطي» و٥٤ في «صورة الأرض». ومع أن هذه كانت تقترب من الحقيقة إلا أن تلك الاكتشافات عُدَّتْ في حينها من الاكتشافات الكبيرة. وبالاستناد إلى ذلك تحقّق في القرن السابع الهجري أبو الحسن علي، الذي كان يعيش في فاس، من الأجزاء الغربية للعالم الإسلامي، ووضع كتابًا ممتازًا عن الجغرافيا[1]. وكما كان الأمر في مؤلفاته الأخرى في علم الفلك، فقد لقي كتابه هذا الكثير من الاعتبار، وقدم للأوروبيين الكثير من المعلومات المهمة والمفيدة.

ومع هذا الكتاب قام أبو الحسن باستكمال جغرافية العالم الإسلامي، وقد جاء بعده الكثير من العلماء الذي صنفوا مؤلفات في الجغرافيا بالاستناد إلى ما تم التوصل إليه من معارف. ومن أشهر هؤلاء أبو الفداء الذي كان واليًا في بلاد الشام[2]، والنويري الذي وضع موسوعة عن العلوم المختلفة

---

(١) المقصود هنا أبو علي الحسن بن علي المراكشي الذي ورد ذكره سابقًا (الحاشية الثانية ص ٥٦) وكتابه.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب من أمراء وملوك الأيوبيين في بلاد الشام. وُلد في دمشق ٦٧٢ هـ وأصبح أميرًا عليها ثم عيّنه السلطان المملوكي محمد بن قلاوون على حماة، وسمح له أن يخطب باسمه في حماة وأعمالها حتى وفاته في ٧٣٢ هـ فخلّفه ولده. نُسبت حماة إليه وأصبحت تسمى «مدينة أبي الفداء».

في مصر[١]، والمقريزي وابن الوردي وابن عباس والحسن وغيرهم. وقد غيّر هذا الأخير دينه واشتهر بين العلماء اللاتين باسم «ليون الإفريقي». ومن هؤلاء العلماء ابن بطوطة، الذي ولد في سبتة بالمغرب وجال في أطراف المشرق حتى وصل إلى تتارستان والهند والصين. وقد سجل في كتاب رحلته كل ما شاهده أو ما سمعه في تلك الأرجاء. وبعد عشرين سنة قام برحلة أخرى إلى إفريقيا وتوغل في السودان والمناطق المجهولة. وقد دوّن كل ذلك في كتاب رحلته، ولكن نظرًا إلى أنه لم يدقق فيما كان يسمعه ويسجله فقد استقبل كتابه ببعض النقد. ومع ذلك لا يمكن القول إن كتابه غير مفيد؛ نظرًا لما قام به من اكتشافات.

(١) المقصود هنا عمله الموسوعي «نهاية الأرب في فنون الأدب» التي جاءت في واحد وثلاثين مجلدًا تشتمل على كل ما يخص السماء والإنسان والحيوان والنبات والتاريخ.

## [سفارات المسلمين وخرائطهم]

بعد أن تولى شاه رخ بن تيمورلنك الحكم في إيران أرسل سفارة على مستوى رفيع إلى الهند والصين المجاورة، وذلك لإرساء علاقات ودية مع هذه الدول. كما أرسل سفارة أخرى إلى حاكم كلكوتا على رأسها العالم المعروف عبد الرزاق السمرقندي. وقد عادت هذه السفارات بمعلومات كثيرة عن الهند والصين، ولذلك أرسل شاه رخ إلى الصين في مهمة أخرى عالم العصر علي قوشجي برفقة ابنه أولوغ بك. وبهذه المناسبة فقد قام علي قوشجي بتصويب خطوط طول الأرض، مع تحديده لدرجة حجم كوكب الأرض، وقدّم بذلك خدمة كبيرة للجغرافيا الإسلامية. ويعتبر مؤلّف كاتب جلبي عن الجغرافيا[1] كتابًا متكاملاً، ولكنه نظرًا إلى أنه يقع ضمن المؤلفات الحديثة فهو لا يدخل ضمن مؤلفات المدنية الإسلامية.

---

(١) المقصود كتابه الرائد «وصف العالم» الذي أعيد نشره مؤخرًا. للمزيد انظر مقالتنا عنه بمناسبة الذكرى الـ ٤٠٠ لولادته: تركيا تحتفي بكاتب جلبي أو حاجي خليفة، وتعيد نشر «وصف العالم»، جريدة «الحياة» ١٣/١٢/٢٠٠٨م.

كما أن علماء المسلمين وضعوا خرائط للبحار لأجل الملاحة. ونظرًا لأن اليونانيين لم يحققوا شيئًا في هذا المجال فإن ما تحقق هنا هو من منجزات المدنية الإسلامية. ففي ١٤٩٧م استفاد البحار البرتغالي فاسكو دي غاما، الذي اكتشف الكثير من الجزر في المحيط الهادئ، استفادةً كبيرةً من الخرائط الموجودة في اللغة العربية التي كانت مع أحد أفراد طاقمه من المسلمين[1].

---

(١) كان المؤرخ قطب الدين النهراولي المعاصر لوصول البرتغاليين إلى الخليج أول من ذكر بالاسم في كتابه «البرق اليماني في الفتح العثماني» أحمد بن ماجد باعتباره الملاح الذي قاد البرتغاليين إلى الهند، وهو ما شاع بعده، ولكن بعض المؤرخين العرب في العقود الأخيرة ينفون ذلك: د. سلطان بن محمد القاسمي، بيان للمؤرخين الأماجد في براءة ابن ماجد، الشارقة.

# العلوم الطبيعية

قدّم العلماء المسلمون للإنسانية خدمات كبيرة من خلال ما وفّروه من معارف للفلسفة والعلوم الطبيعية، كما فعلوا ذلك بالنسبة إلى علوم الرياضيات وعلم الفلك وعلم التنجيم وعلم الميكانيكا والبصريات والجغرافيا. ففي العلوم الطبيعية أيضًا تفوق المسلمون على ما كان عند اليونانيين، ولذلك يستحقون القول بأنهم من اخترعوا هذه العلوم.

وفي هذا السياق فقد تقدمت الكيمياء كثيرًا على يد العلماء المسلمين. ويعتبر البعض أن الخيمياء ساعدت بشكل ما على تقدم الكيمياء؛ لأن التجارب المتواصلة التي كان يجريها الخيميائيون وما كشفت عنه من عناصر مختلفة من المواد وتركيبها، ساعدت بدورها الكيمياء في تطورها. ولدينا في مؤلفات جابر أبي موسى جعفر الكوفي[1]، الذي عاش في القرن الثالث الهجري وأبي بكر

---

(١) المقصود هنا أبو موسى جابر بن حيان أو أبو عبد الله جابر بن حيان الذي يعتبر مؤسس علم الكيمياء حتى أنه كان يطلق عليه «علم جابر»: عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٤٩.

الرازي الذي عاش في النصف الأول للقرن الرابع الهجري، ما يثبت مدى تقدم هذا العلم. ففي مؤلفات هذين العالمين نجد استعراضًا واضحًا لاستخلاص حمض الكبريت وحمض النتريك وماء الذهب وطريقة إنتاج الزئبق وغيرها من الأحماض، واستخلاص الكحول وغير ذلك من التفاعلات الكيمائية (انظر «مقدمة في الكيمياء» للمرحوم عزيز بك).

## [علم النباتات]

مع انتشار المسلمين في أرجاء الأرض تعرفوا على نباتات مختلف الأقاليم المناخية بالإضافة إلى ما عرفوه في كتاب ديسكورد الذي ترجموه عن اليونانية. وهكذا فقد أضافوا إلى المعرفة ألفي نوع من النباتات التي لم يكن يعرف عنها اليونانيون شيئًا.

ففي الكتاب الذي ألّفه ابن سينا عن الطب نجد ذكرًا للكثير من النباتات التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين. وقد قدم أبناء ابن رشد معلومات كثيرة عن النباتات إلى ملك إسبانيا فرديناند الثاني. وكان الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الأول قد أنشأ حديقة واسعة وغنية بمختلف النباتات في ضاحية قرطبة. ولكي يزرع فيها النباتات التي لم تكن موجودة في الأندلس فقد أرسل إلى إفريقيا وآسيا من يجلب له نباتات من تلك الأرجاء.

ومن منجزات العلماء المسلمين في هذا المجال استخدام النباتات الطبية مثل الرواند والتمر الهندي والسنماكي والكافور وغيرها، التي لم تكن تستخدم

حتى ذلك الحين، بالإضافة إلى استخدام السكر بدلاً من العسل في تحضير الأدوية الطبية. وقد اكتشف الأطباء المسلمون أنه يمكن صنع أشربة وحلويات مختلفة من السكر، كما اكتشفوا طرائق لحفظ النباتات والثمار.

وفي الأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية كان هناك مراقبون مكلفون بالتفتيش على محلات الأدوية، والتأكد من صلاحيات الأدوية وعدم بيعها بأسعار عالية. وهكذا كانت محلات الأدوية تفتش في المدن الصغيرة وحتى في القرى، وكانت توجه لأصحابها الملاحظات لكي تكون لديهم كل أنواع الأدوية.

وقد اكتشف العلماء المسلمون أن النباتات أيضًا تقسم إلى مذكرة ومؤنثة، وقد اخترعوا أدوات جديدة للزراعة كما ألّفوا مؤلفات كثيرة عن الفلاحة.

وفي كتابه عن الجيولوجيا يثبت العالم الإنكليزي ليل في مقدمته أن العلماء المسلمين كانوا قد اشتغلوا أيضًا في هذا العلم. وكما سبق العالم الكبير القزويني في مؤلفاته المهمة عن أنواع النبات والحيوان فإن الدميري أيضًا قد صنّف كتابًا متكاملاً عن الحيوان، حتى أن العلماء الأوروبيين يطلقون عليه بحق «بيفون العرب»[١].

وما لدينا الآن من نباتات في أوروبا، وخاصة معظم الورود، إنما هو مأخوذ من مسلمي الأندلس.

(١) المقصود هنا كتابه الموسوعي «حياة الحيوان الكبرى».

## الطـب

تقدّم الطب أيضًا مثله مثل العلوم الأخرى عند المسلمين. فقد ألّف يحيى ابن مسكويه، الذي كان طبيب الخليفة هارون الرشيد، حوالي ثلاثين كتابًا قيمًا حول الأدوية والحمى والنظافة واستخدام الغذاء والصداع وغيرها من المواضيع الطبية. وقد وصلت هذه المؤلفات إلى الأوروبيين سواء في العربية أو في ترجماتها إلى العبرية. وقد أرسل تلميذه حنين إلى اليونان لكي يجلب من هناك مؤلفات العلماء اليونانيين، وعندما عاد إلى بغداد ترجم كتاب جالينوس وكتاب أبوقراط. كما ألّف حنين عدة مؤلفات عن الطب والمنطق. وبالإضافة إلى هذين الطبيبين كان هناك الكثير من الأطباء في العصر العباسي، ولكن أشهرهم كان أبا بكر الرازي وأبا علي (ابن) سينا، اللذين كانت مؤلفاتهما الأساس في عمل الأطباء المسلمين وكذلك الأوروبيين خلال وقت طويل.

وكان أبو بكر الرازي قد جمع كل ما ألّف عن الطب من قبله ودرسه بعناية، كما أنشأ مشافي في بغداد والري ونيسابور، وبالإضافة إلى كتابه «الحاوي»

الذي تناول فيه بالتفصيل الموضوعات الطبية فقد ألّف كتابًا خاصًّا عن الجدري والحصبة حاز به على شهرة كبيرة في أوروبا. وكان الرازي قد ألّف عشرة كتب باسم المنصور حاكم خراسان[1]، وقد ترجمت هذه الكتب وطبعت في البندقية خلال القرن السادس عشر مما حقق له شهرة أكبر في أوروبا. وقد وصل عدد مؤلفاته إلى حوالي المئتين. ومن الاكتشافات التي تعود إليه: استخدام الكيمياء في الطب، أي الاستفادة من التفاعلات الكيمائية لأجل صنع الأدوية. وكان له اهتمام بالتشريح؛ حيث توصل إلى الكشف عن أمور كثيرة في هذا المجال. وقد ضعف بصره في شيخوخته ولكنه رفض إجراء عملية لعينيه لأنه طرح سؤالاً على الجراح «من كم طبقة تتألف العين؟» ولم يأخذ جوابًا شافيًا. ولذلك قال «لن أقبل بإجراء عملية طالما لا يوجد جراح يعرف من كم طبقة تتألف العين». وكان الرازي قد تجول وزار بلاد الشام ومصر وحتى الأندلس.

وبعد نصف قرن ظهر في إيران الطبيب علي بن عباس، الذي أخذه عضد الدولة البويهي في رعايته. وكان ابن عباس قد أوضح أخطاء أبقراط وجالينوس في الطب وألّف كتابًا شاملاً في الطب يتألف من عشرين جزءًا[2]. وقد ترجم

---

(١) المقصود هنا «كتاب المنصوري» الذي يتألف من عشر مقالات (شكل الأعضاء وخلقها، ومزاج الأبدان وهيئتها، الأخلاط الغالبة عليها، قوى الأغذية والأدوية ... إلخ): عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٠.

(٢) المقصود كتابه «الملكي» المعروف أيضًا بـ«كامل الصناعة» الذي لزم الناس درسه إلى أن ظهر كتاب «القانون» لابن سينا. ومع ذلك كان يقال إن «الملكي» في العمل أبلغ، و«القانون» في العلم أثبت: عبد الرحمن، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٥.

هذا الكتاب أيضًا إلى اللغات الأوروبية، وساعد كثيرًا على تقدم الطب لدى الشعوب الأوروبية الحديثة.

وفي نهاية القرن السابع الهجري ولد في شيراز حسين بن سينا، الذي درس في بخارى الطب والعلوم الأخرى. وقد تمكن وهو في الثامنة عشرة من شفاء الأمير نوح حاكم المدينة وحاز بذلك على شهرة كبيرة لدى حكام إيران. وقد رفض تلبية دعوة السلطان محمود الغزنوي الذي أغراه للالتحاق به مما عرّضه للعقاب. وبعد فترة غادر الري؛ حيث كان تحت رعاية مجدد الدولة، وذهب إلى همذان حيث أصبح هناك رئيسًا للأطباء ورئيسًا للوزراء لدى شمس الدولة الحاكم في تلك الأرجاء. ومع أنه انشغل هناك في الأمور السياسية والاجتماعية إلا أنه لم يهمل العلم. فقد كتب الكثير من المؤلفات في مجال الطب وغيره من العلوم. وقد أصبح كتابه «القانون»، الذي يشتمل على تفسيرات علمية وافية، هو المرجع الأول في البلاد لستة قرون. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الأوروبية وطبع عدة مرات، وكان هو المرجع الرئيس في كليات الطب بفرنسا وإيطاليا.

# [الطب في الأندلس]

وفي الأندلس أيضًا كان لدينا الكثير من الأطباء المعروفين خلال القرنين السادس والسابع للهجرة مثل أبي القاسم بن عباس وأبي مروان بن عبد الملك ابن زهر وأبي الوليد محمد بن رشد وعبد الله بن أحمد بن علي البيطار وغيرهم.

كان أبو القاسم جراحًا، وقد نجح في هذا المجال العلمي بالتوصل إلى الكثير من الاكتشافات. وقد ألّف كتابًا عن أدوات الجراحة وعن كيفية استخدامها. ولايزال الأوروبيون إلى الآن يستخدمون طريقته في استخراج الحصى من المثانة وفي تحديده للموضع الذي يجب شقه لاستخراج الحصا.

وقد ولد ابن زهر في الأندلس، وبعد أن درس هناك أصبح رئيسًا للأطباء عند حاكم بلاد فارس يوسف بن تاشفين(١). وقد تميّز ابن زهير بالجمع بين

---

(١) من الواضح أنه لدينا لبس هنا لأن يوسف بن تاشفين المذكور هو من أسّس مدينة مراكش في ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م واتخذها عاصمة لدولة المرابطين، ثم وحد المغرب والأندلس بعد معركة الزلاقة ضد ألفونسو السادس في ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، أي أن بلاد فارس جاءت سهوًا، عوضًا عن بلاد المغرب والأندلس، كما أن ابن زهر كان الطبيب الخاص للسلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي ولاه الوزارة: جودة، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، ص ١٩١.

الجراحة والطب والصيدلة، التي كان على معرفة جيدة بها. فقد اكتشف العديد من الأدوية لاستخدامها في الطب كما كان يداوي الأمراض التي لها علاقة بالتهابات أعضاء الجسم المختلفة. أما فيما يتعلق بالجراحة فقد كان ماهرًا في جبر الكسور ومعالجة الرضوض والعمليات المتعلقة بالحلق. وقد تابع ابنه من بعده هذا الطريق وأصبح طبيبًا ليوسف بن تاشفين.

وكان ابن رشد من تلاميذ ابن زهر، وقد صنّف مؤلفات في الفلسفة والتصوف والعلوم الأخرى، كما ألّف تعليقًا مفصلاً على كتاب أرسطو. أما في مجال الطب فقد ألف تعليقًا على كتاب «القانون» لابن سينا، كما ألّف كتابًا عن أمراض الحمى والأمراض التناسلية والأمراض النفسية.

أما ابن البيطار فقد ولد في ملقة، وبعد أن درس في الأندلس ذهب إلى المشرق حيث حظي بتكريم كبير؛ حيث كرّمه صلاح الدين الأيوبي في القاهرة والملك العادل في دمشق. وقد ألّف ابن البيطار كتابًا بعنوان «الأدوية البسيطة» تحدث فيه بشكل مفصل عن الحيوانات والنباتات والأشجار والمواد الأخرى التي تستخدم في الطب. وقد صحح في هذا الكتاب ما ورد لدى جالينوس ودوسكورد بالاستناد إلى المعارف الجديدة التي توصل إليها.

وبالإضافة إلى هؤلاء لدينا الكثير من الأطباء المسلمين الذين تحتاج أسماؤهم فقط إلى مجلدات. ومن أشهر هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد الطالبي

الذي صنف كتابًا عن التهاب الرئة البيضاء وبعض الأمراض الأخرى، وثابت ابن قـرة الذي ورد ذكره سابقًا، وأبو الحسن ابن التلميذ، وعلي بن رضوان، وعبد الرزاق، وهبة الله، وإسحق بن إبراهيم، وغيرهم.

## الفلسـفة

عرفت الفلسفة تقدمًا كبيرًا في العالم الإسلامي مثلها مثل العلوم الأخرى. وحين ترجمت إلى اللغة العربية المؤلفات العلمية اليونانية في بداية الخلافة العباسية لم يتم تجاهل أفكار وآراء الفلاسفة اليونانيين، بل حظيت كغيرها بالتعليقات والتفسيرات. وهكذا أصبح سقراط وفيثاغوروث واندستين وديوجين وغيرهم من الأسماء المعروفة في العالم الإسلامي، وكذلك أفكارهم وآراؤهم.

أما الأوروبيون فقد أدت أفكارهم المتخلفة عن القرآن الكريم إلى تجاهل الفلسفة الإسلامية لوقت طويل. ولكن عندما تصفحوا المؤلفات الفلسفية للمسلمين ولاحظوا ما فيها من تقدم في هذا المجال، وحينما لاحظوا أن القرآن الكريم، الذي هو فلسفة في حد ذاته، لا يمنع الفلسفة بل يحض عليها؛ فقد عرفوا الحقيقة آنذاك وأقرّوا بها.

ولم يكتف المسلمون بالمؤلفات الفلسفية اليونانية بل وسعوها أكثر. فمع تفسيراتهم وتعليقاتهم عليها أضافوا إليها أيضًا أفكارهم وآراءهم. وهكذا بعد أن صحّحوا بعض أفكار الفلاسفة اليونانيين قاموا بتأليف كتب كثيرة عن الفلسفة، وبرز من هؤلاء فلاسفة معروفون مثل الكندي ومحمد بن مسعود وأبي تمام النيسابوري وابن سهل البلخي والإسفراييني والعامري والفارابي وابن سينا وغيرهم. وقد جاء بعدهم أيضًا فلاسفة كبار أسهموا بدورهم في تقدم الفلسفة، وتُرجِمت أعمالهم إلى اللغات الأوروبية وبقيت تدرس لوقت طويل في الجامعات الأوروبية مثل ابن باجه الذي يعرفه الأوروبيون باسم Avenpace وأثير الدين البهري وعلي الهوني وابن رشد وأبي السلط ونصير الدين الطوسي وغيرهم. ولم يقصّر الفلاسفة المسلمون في تصنيف المؤلفات حول أدق الأفكار والمسائل الفلسفية، ولذلك فقد قُسِّموا إلى عدة جماعات واتجاهات حسب آرائهم.

## [مدارس الفلسفة وأعلامها]

أدى انتشار الفلسفة في العالم الإسلامي إلى توزع الفلاسفة المسلمين إلى وضعيين وماديين ومنشقين وصوفيين وديالكتيكيين... إلخ، حيث جمعوا بين الفلسفة والعقيدة والأحكام الدينية، وبرزت مع ذلك معارف العقائد وعلم الكلام والتصوف.

ومن العلماء الذين كتبوا عن الفلسفة الدينية لدينا الإمام الغزالي، الذي صنّف حوالي مئة كتاب والذي اشتهر بلقب «حجة الإسلام» لرفعه من شأن الفلسفة الإسلامية ودفاعه عنها. وقد ألّف الغزالي كتابًا جمع فيه ملاحظاته عن الفلسفة[1]. وعلى الرغم من الاعتقاد بأنه كان ضد الفلسفة في هذا الكتاب إلا أنه لا يحطّ من شأن الفلاسفة بسبب أفكارهم وآرائهم. ومع أن آراء بعض الفلاسفة لم تكن تتفق مع آراء غيرهم إلا أنهم كانوا يعرضون الأسباب التي كانت تجعلهم يختلفون فيما بينهم.

---

(١) يبدو أن المقصود هنا كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي تُرْجم بعد وفاة الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م) إلى العبرية واللاتينية ثم إلى الفرنسية والإسبانية وغيرها، وكان له تأثير لدى الفلاسفة في أوروبا (عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، (١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١م).

وفيما يتعلق بالتصوف فقد كان بين الشعوب الإسلامية أسماء معروفة مثل محيي الدين بن عربي والجنيد البغدادي والشبلي ومولانا جلال الدين الرومي وغيرهم، الذين حاولوا أن يكشفوا عن المعاني الفلسفية الكامنة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ونجحوا في ذلك ليساهموا في تقدم هذا الفرع من الفلسفة. ومن الممكن أن نلمس أثر المتصوفين المسلمين لدى الفلاسفة الأوروبيين المعروفين كفلاسفة متصوفين كسبينوزا وهيجل.

أما في علم الكلام والعقائد، وكذلك في تفسير القرآن والحديث، فقد برز أيضًا علماء كبار مثل فخر الدين الرازي وعلي بن عمر الخطيب والإمام البيضاوي وأبي بكر النسفي وشمس الدين الأصفهاني وحسين الشيرازي وغيرهم. وقد برز من بين صفوف المعتزلة محمد الجهماني وأبو حذيفة الواصلي وأبو علي الجباعي وأبو حسين عبد السلام وأبو قاسم البلخي وابن إياس وأبو يعقوب السهامي وغيرهم، الذين كانوا يتمركزون في بغداد والبصرة. ويتضمن كتاب «تحفة إخوان الصفا» أفكارهم الفلسفية بشكل مفصل، وهو دليل قوي يبيّن إلى أي حد وصل هؤلاء في تمايزهم عن الفلسفة الدينية.

## القانون

يحتوي القرآن الكريم على الكثير من الآيات التي تتحدث عن الشريعة، وكذلك لدينا أحاديث كثيرة للرسول تتناول السلوك والمعاملة. وهكذا فقد ولدت الشريعة، أي القانون الإسلامي، مع ظهور الإسلام. وبعد قرن ونصف من العمل بموجب القرآن والحديث برزت حالات جديدة لم تشملها الآيات والأحاديث، فأصبح يُبتّ فيها بالاستناد إلى المنطق السليم والتصرف الصحيح والعدل والمعرفة. وحين ظهرت الحاجة إلى تقنين الشريعة قام الإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام الشافعي والإمام مالك والإمام ابن حنبل بإنجاز هذه المهمة الكبيرة والمقدسة في السنوات الأولى بعد القرن الأول الهجري. وبهذا العمل فقد قدم هؤلاء خدمة كبيرة جدًّا للدين الإسلامي والمدنية الإسلامية.

ولأجل رعاية وحماية العدل وحسن سير الأمور في أرجاء الدولة، فقد قام هارون الرشيد باختيار أحد تلاميذ أبي حنيفة القاضي أبي يوسف لهذا الأمر[1]. ولأجل تحقيق هذا الهدف فقد تم تعيين شخصيات مشهود لها بالعلم والمعرفة كقضاة في كافة أرجاء البلاد.

وقد برز في المذهب الحنفي علماء كبار مثل أبي يوسف المذكور وإبراهيم الحلبي ومحمد بن شهاب الزهري وهنود الدين وأبي عبد الله محمد وغيرهم، الذين تعمقوا في دراستهم وتعاطيهم مع مسائل الشريعة.

ونظرًا لأن الخلفاء العباسيين اختاروا هذا المذهب (الحنفي) فقد انتشر هذ المذهب في معظم البلدان التي كانت تتبع الخلافة في المشرق وفي مصر. ومن الذين ساعدوا الخلفاء العباسيين على ذلك أبو يوسف المذكور ويحيى في الأندلس من تلاميذ الإمام مالك، وسحنون في إفريقيا. وبعد هؤلاء اشتهر من العلماء أيضًا محمد الموزي ومحمد العتبي وأبو مروان السليم وأبو عبد الله محمد ابن إبراهيم وابن الحاجب وأبو محمد عبد الله بن أبي زيد وخليل بن إسحق وابن يونس الصقلي وعبد الله بن عمر المزاري، الذي ولد في بلدة مزارة بصقلية.

(١) المقصود هنا تعيينه في المنصب الجديد (قاضي القضاة) الذي استحدثه الخليفة هارون الرشيد (توفي ١٩٣هـ/٨٠٩م) واتسعت صلاحياته فيما بعد. للمزيد: عصام محمد شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، بيروت (دار مصباح الفكر) ١٩٨٨.

وفي الوقت الذي انتشر المذهب الحنفي في آسيا ومصر كان المذهب المالكي ينتشر في الأندلس وإفريقيا. وقد انتشر المذهب الشافعي في مصر فقط بينما لم ينتشر المذهب الحنبلي في أي بلد[1].

وبهذا الشكل فقد دفع العلماء المسلمون بالقانون الإسلامي إلى الأمام، وقاموا بوضع القواعد له أكثر من أي شعب آخر. وهكذا فقد تم ضمان حقوق الأفراد في الشعوب بقانون عادل لا يتغير حتى لا يترك لأي حاكم أن يحكم بمزاجه أو بطريقته الخاصة.

---

(١) الصحيح أن المذهب الحنبلي انتشر في البلدان المجاورة للعراق، في بعض بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية. فبعد إلغاء صلاح الدين الأيوبي للخلافة الفاطمية، التي كان فيها قاضي القضاة على المذهب الشافعي، أصبح قاضي القضاة على المذهب الشافعي، ونائب قاضي القضاة على المذهب الحنبلي. وفي بداية الدولة المملوكية، التي كانت تحكم مصر وبلاد الشام والحجاز، قام السلطان الظاهر بيبرس في ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م بتعيين قاضي قضاة لكل مذهب، وأصبح منذ ذلك الحين قاضي قضاة للمذهب الحنبلي في القاهرة ودمشق. للمزيد: شبارو، المرجع السابق، ص ٣٩-٤٣. وإلى جانب ذلك فقد أصبح المذهب الحنبلي هو المذهب السائد في الدولة السعودية الجديدة التي شملت الحجاز منذ ١٩٢٦.

## الأدب

حقّق المسلمون تقدمًا في مجال الأدب كما في مجالات العلوم الأخرى. وكان العرب قبل الإسلام يتعاطون الشعر ويبدعون قصائد فصيحة وبليغة، ولكن قواعد اللغة العربية لم تكن مصنفة ولذلك لم يكن لدى العرب أدب مرتب أو منظم. أما القرآن الكريم فقد نزل في لغة عربية فصيحة وبليغة أبهرت الشعراء. وقد ترك القرآن الكريم أثرًا قويًّا على جوهر اللغة العربية، وأصبح نموذجًا للأدب سواء بالنسبة للعرب أو بالنسبة لغير العرب الذين دخلوا حظيرة الإسلام، وأصبحوا يعتبرون العربية اللغة العلمية والأدبية. ولأجل فهم أفضل لكلمة الله فقد كان الأعاجم أكثر اهتمامًا بالجوانب النحوية والصرفية والدلالية للغة العربية، ولذلك فقد كان الفرس والشعوب الإسلامية الأخرى هم من اهتموا بهذه الأمور لكي يفهموا العربية بشكل أفضل وكتبوا لأجل ذلك التفاسير. ولكي يفهموا العربية، التي هي لغة القرآن واللغة الفصحى، كان عليهم أن يضعوا معاجم أيضًا.

وهكذا مع ظهور الإسلام، أخذت اللغة العربية تتوسع وتتطور. وقد ساعدت ترجمة المؤلفات العلمية من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية على إثراء العربية بمصطلحات علمية ومعرفية كثيرة؛ مما جعل اللغة العربية تشتهر كلغة علمية واسعة. ونظرًا لأن اللغة العربية تحتوي على تفاصيل كثيرة فقد صُنِّفت مؤلفات كثيرة عن النحو والصرف والمعاجم وعلم الدلالة العربية. وقد برز في هذه المجالات علماء مثل سيبويه والفارسي والزَّجَّاج وابن الحاجب وغيرهم. أما في مجال المعاجم اللغوية فقد تميز الجواهري والفيروزآبادي والزمخشري وغيرهم.

وقد صنّف الزمخشري مؤلفين عن قواعد العربية[١]، كما أنه وضع تفسيرًا قيمًا بعنوان «الكشاف» ومعجمًا ثنائي اللغة عربيًّا فارسيًّا.

وقد جاء بعده الفيروزآبادي الذي جمع كل كلمات وتفاصيل اللغة العربية. وبعد أن حلّل وشرح بشكل مفصل كتاب «المقدمة» لأبي الحسن علي بن سيده ومعجم حسن بن محمد الذي كان يتألف من عشرين جزءًا صنّف «القاموس المحيط» الذي جاء في ستين جزءًا. أما ما يستعمل اليوم في ثلاثين جزءًا فهو ملخص عنه. وكان الفيروزآبادي قد تجول طويلاً في أرجاء الجزيرة العربية ليتحقق من الكلمات الدخيلة، وليسمع بنفسه المفردات من عرب الصحراء الذين كانوا قد حافظوا على لغتهم الأصيلة. وبالإضافة إلى هذا القاموس فقد صنّف الفيروزآبادي حوالي أربعين مؤلفًا آخر. وحين وصلت قدرات هذا العالم الكبير

(١) المقصود هنا «أساس البلاغة» و«الأنموذج».

إلى مسامع تيمورلنك وبيازيد الأول، أحد السلاطين العظام للدولة العثمانية، قاما بتقديم الجوائز له.

وإلى جانب هذا التقدم الذي حققته اللغة العربية فإن اللغة الفارسية أيضًا قد بنت هرمها الأدبي الكبير. وقد أصبحت هذه اللغة تُكتب بالحروف العربية، كما أخذت من العربية الكلمات الضرورية، مما جعلها تتحول إلى لغة واسعة وجميلة. وقد برز في هذه اللغة شعراء معروفون بحبهم للغة مثل الفردوسي والطوسي ونظامي وأنوري وسعدي ودقيقي ورتقي والشيخ العطار وحافظ الشيرازي وخسرو وغيرهم من الذين تعتبر قصائدهم من القمم الشعرية.

وقد أصبحت اللغة التركية أيضًا تكتب بالحروف العربية، وأخذت مفردات كثيرة من اللغة العربية مما جعلها تتوسع.

وكما أن العلماء الفرس والترك اهتموا وصنفوا مؤلفات في قواعد اللغة العربية فإن العلماء العرب أيضًا صنفوا مؤلفات قيمة عن قواعد اللغة الفارسية وقواعد اللغة العربية.

وقد انشغل العلماء المسلمون وصنفوا مؤلفات عن البلاغة مثل «تلخيص المفتاح» لسعد الدين التفتازاني، الذي شرحه الغزنوي، و«حديقة البلاغة» لمير شمس الدين، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة ... إلخ.

وقد اكتشف الخليل بن أحمد (الفراهيدي) بحور الشعر في العالم العربي، كما أن كلاً من السكاكي والسيوطي صنف مؤلفًا كاملاً عن البلاغة وحسن التعبير في العربية[١].

(١) المقصود كتاب «المفتاح» للسكاكي الذي شُرِح ولُخِّص كثيرًا، و«الإفصاح على تلخيص المفتاح» للسيوطي.

## [الآثار الأدبية الخالدة]

ألّف المسلمون في لغتهم الفصيحة والجميلة الكثير من القصص والطرائف حول الأخلاق وحسن المعاملة. وفي هذا المجال التعليمي لدينا مؤلفات لا تُحصى في العربية والفارسية. ففي العربية لدينا على سبيل المثال «مقامات» أبي القاسم الحريري والهمذاني، و«أطواق الذهب» للزمخشري، و«أمثال» لقمان، و«كليلة ودمنة» و«ألف ليلة وليلة»، بينما لدينا في الفارسية «جلستان» لسعدي و«أنوار سهيل»[1] و«خمسة» لنظامي[2] ... إلخ.

ولم يقصّر العلماء المسلمون في جمع التراث الشعبي والقصص ذات الطابع التعليمي، التي تتضمن دلالات فلسفية، وتعبر عن أخلاق وأفكار

---

(١) المقصود هنا الترجمة الفارسية الحديثة لكتاب «كليلة ودمنة» التي أنجزها في القرن التاسع عشر حسين واعظ كاشفي، وقد اشتهرت هذه الترجمة بشكل خاص لأنها تُرْجِمت بدورها إلى اللغة الفرنسية وتأثر بها لافونتين في بعض ما كتبه.

(٢) المقصود هنا كتاب «خمسة كنوز» (بنج غنج) أو الكنوز الخمسة للشاعر الفارسي المعروف نظامي كنجوي (١١٤٠-١٢٠٣م)، التي تتألف من خمس منظومات قصصية (مخزن الأسرار، خسرو شيرين، ليلى ومجنون، إسكندر نامه، بهرام نامه).

الشعوب. ففي اللغة العربية لدينا مجموعات كثيرة من القصص التعليمية، التي حظيت بالشهرة والقبول أكثر من غيرها.

وفي هذا السياق فقد وضعت مصنفات كثيرة عن التراث العربي. ومن ذلك كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، الذي جمع فيه الكثير من الأخبار والأشعار. وقد حشد المؤلف في هذا الكتاب الكثير من الأخبار التاريخية والأدبية، مع أن بعضها لا يستحق ذلك.

## [مكانة الشعر عند المسلمين]

يمكن القول إن الشعر هو اختراع المسلمين، حتى أن الأوزان الشعرية انتقلت من المسلمين إلى الشعوب الحديثة (الأوروبية). وكان العرب قد تميزوا بالشعر قبل الإسلام. فقد كانت تجري حول الكعبة منافسات بين الشعراء الذين يأتون من مختلف أرجاء الجزيرة العربية، وكانت أفضل القصائد تُكتب بالذهب وتُعلق على الكعبة ويحظى أصحابها بالتقدير العام والجوائز. وبهذا الشكل كان يتم اختيار أفضل القصائد. وقد تم جمع قصائد الشعراء السبعة الذين علّقت قصائدهم على الكعبة في كتاب بعنوان «المعلقات السبع»، الذي لايزال محفوظًا إلى الآن[1]. وهؤلاء الشعراء السبعة هم: الحارث بن حِلِّزَة وزُهَيْر وعَمْرو بن كلثوم وامرؤ القيس وطَرَفَة وعنترة ولَبيد.

وخلال المواسم كان يجتمع الكثير من الشعراء في مكة والمدينة. وقد قام بعض الشعراء بمدح الرسول مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب

(١) كان ش. سامي من المهتمين بشعراء المعلقات، وحتى أنه أنجز قبل سنتين من وفاته (١٩٠٢) كتابًا في التركية بعنوان «شعراء المعلقات» إلا أنه بقي بين مخطوطاته ولم يطبع: Bakiu, Bibliografi, p. 72

ابن مالك. ومن هؤلاء كان كعب بن زهير - ابن أحد أصحاب المعلقات السبع- الذي حظي بسمعة لدى المسلمين بقصيدته «البردة» التي مدح فيها الرسول.

وقد صُنّفت لاحقًا مجموعات كثيرة لقصائد الشعراء العرب. ففي القرن الثالث الهجري صنّف أبو تمام حبيب الطائي كتابه الممتاز «الحماسة» الذي جمع فيه أفضل القصائد للشعراء العرب. وقد مدح المتنبي بقصائده سيف الدولة.

إلا أن الشعراء العرب الذين عاشوا خارج الجزيرة العربية مثل أبي نواس وابن دريد وابن الفرخي أساءوا إلى الشعر. فقد انشغل هؤلاء في مجالات علمية أخرى، ولذلك فقد أفسدوا الروح الواقعية للشعر، وبذلك أخذوا بالتدريج يفقدون الروح والقوة الشعرية للشعر العربي الأصيل.

وتتميّز القصائد بقوة لغتها وتأثيرها، إلا أن الكثير منها يعاني من نقائص حيث إن قلة منها تتابع الموضوع الذي تبدأ به القصيدة. وهذا الذي نجده عند معظم الشعراء العرب لا نجده عند الشعراء الفرس، الذين يتميزون بترتيب وتنظيم واضح. وعلى حين أن معظم الشعراء العرب يكتبون القصائد والغزل فإن الشعراء الفرس يكتبون الملاحم مثل «شاهنامه» للفردوسي و«بنج كنج» لنظامي، بينما نجد لدى العطار وجامي الكثير من القصص الشعرية. وبغض النظر عن ذلك نجد في هاتين اللغتين، بالإضافة إلى اللغة التركية، الكثير من الأشعار التي تتميز بمعانٍ عميقة.

## التـاريخ

اشتغل المسلمون في مجال التاريخ أكثر من أية أمة أخرى. فقد ذكر حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ١٣٠٠ مؤرخ. ومن أشهر المؤرخين المسلمين أبو الفداء وأبو الفرج[١] وبرهان الدين[٢] وابن خلدون والمقريزي الذين تعتبر مؤلفاتهم مراجع رئيسة بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين.

ومع أن أبا الفداء كان حاكمًا في بلاد الشام، وشارك في المعارك وأثبت شجاعة كبيرة، كما اهتم بالعدل في حكمه إلا أنه كان يجد وقتًا للعلم. وكما سبق القول فقد صنّف أبو الفداء مؤلفًا في الجغرافيا كما صنّف تاريخًا شاملاً ضمّنه معلومات عامة عن كل الشعوب؛ وخاصة عن الشعوب الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية[٣].

---

(١) المقصود هنا غرغوريوس بن أهرون المعروف بابن العبري (١٢٢٦-١٢٨٦م) أسقف حلب ومؤرخها الذي ألّف بالسريانية «التاريخ الكنسي» و«تاريخ الزمان السرياني» الذي اختصره بالعربية وسمّاه «مختصر تاريخ الدول». انظر الحاشية الأولى ص ١١٠ من هذا الكتاب.

(٢) الصواب هنا بهاء الدين.

(٣) المقصود هنا كتابه «المختصر في أخبار البشر» الذي يعرف أيضًا بـ «تاريخ أبي الفداء».

أما أبو الفرج فقد كان أسقفًا في حلب وصنّف مؤلفًا في اللغة السريانية تناول فيه تاريخ كل الشعوب، وخاصة العرب والمغول، وتحدث فيه عن فتوحات جنكيز خان. وبعد أن اعتنق الإسلام قام بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية[١].

وكان برهان الدين يعمل في البداية بالمدرسة النظامية في بغداد، وانتقل بعدها إلى المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين الشهرزوري في الموصل، ثم انتقل إلى مصر بطلب من صلاح الدين الأيوبي الذي عيّنه قاضيًا للعسكر. وبعد وفاة صلاح الدين عيّنه أولاده قاضيًا للعسكر في حلب. وقد أسس هناك كُتّابًا ومدرسة ثم اعتزل القضاء ليتفرغ للعلم، حيث ألّف كتابًا شاملاً في التاريخ[٢].

وأما ابن خلدون ففقد صنّف مؤلفًا تاريخيًّا مهمًّا عن العرب والبربر والشعوب الأخرى. وقد اشتهر ابن خلدون بكونه يسعى إلى الحقيقة ولا يميل إلى تعظيم الأمور. ويتألف عمله هذا من مقدمة بثلاثة أجزاء تناول فيها الفلسفة السياسية، وقدّم فيها الكثير من المعلومات عن أحوال الشعوب والشخصيات.

---

(١) المقصود هنا كتابه «مختصر تاريخ الدول» الذي اختصر فيه بالعربية مؤلفه الكبير بالسريانية «تاريخ الزمان السرياني»، الذي صدر مؤخرًا ببيروت في طبعة جديدة (دار الرائد اللبناني ١٩٩٤) بتحقيق أنطوان صالحاني اليسوعي.

(٢) المقصود هنا بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الوصلي الشهير بابن شداد (٥٣٩-٦٣٢ هـ/ ١١٤٥-١٢٣٩م)، الذي يختلط أحيانًا مع ابن شداد الآخر صاحب «الأعلاق الخطيرة». وقد عيّنه بالفعل الملك الظاهر قاضيًا لمدينة حلب ومشرفًا على أوقافها، وأنجز هناك أشهر مؤلفاته «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أو «السيرة الصلاحية». للمزيد انظر مقارنة المحقق بين ابن شداد الأول وابن شداد الثاني: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ١ ق ١، تحقيق يحيى زكريا عبّارة، دمشق (وزارة الثقافة) ٢٠٠٦، ص ١٥-١٦.

وقد ترجمت هذه المقدمة من قبل بيري زاده في عهد السلطان أحمد الثالث[١]. وقد صنّف ابن خلدون مؤلفًا عن العمران وعدة مؤلفات أخرى.

ومن معاصري ابن خلدون كان تقي الدين أحمد المقريزي. وقد صنّف المقريزي مؤلفين مهمين يتضمنان الكثير من المعلومات عن التاريخ والجغرافيا ونظام الحكم والأمور الأخرى، خصّص الأول منهما عن مصر في عهد المماليك[٢]، بينما خصّص الثاني عن مصر الإسلامية[٣]. وقد ألّف أيضًا كتابًا عن المسكوكات الإسلامية[٤]. وفي أواخر حياته بدأ في تصنيف معجم كبير مرتب حسب الحروف الأبجدية يتناول فيه حكام وعلماء مصر وزوّارها من الشخصيات المعروفة في ثمانين مجلدًا، ولكنه توفي قبل أن يكمله. ولدينا مجلد من هذا العمل الذي لم يكتمل في المكتبة الوطنية بباريس[٥].

---

(١) السلطان الثالث والعشرون للدولة العثمانية، حكم خلال ١١١٥- ١١٤٣هـ / ١٧٠٣- ١٧٣٠م.

(٢) المقصود هنا كتابه المرجعي «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» الذي طبع لأول مرة بمجلدين في بولاق سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م.

(٣) المقصود هنا كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» الذي طبع في القاهرة ما بين ١٩٣٤ و١٩٧٣م بتحقيق د. محمد مصطفى زيادة، ود. سعيد عبد الفتاح عاشور في أربعة أقسام يتألف كل منها من ثلاثة أجزاء.

(٤) المقصود هنا رسالته «شذور العقود في ذكر النقود» التي نشرها أنستاس ماري الكرملي بعنوان «النقود العربية القديمة» في كتابه: النقود العربية وعلم النميات، بيروت د. ت، ص ٢١-٧٣.

(٥) المقصود هنا «التاريخ الكبير المقفى في تاريخ أهل مصر والوازدين عليها» الذي أنجزه في ستة عشر مجلدًا، ولكنه كان يمكن لو أراد أن يأتي في ثمانين مجلدًا حسب ما نقل السخاوي عنه «لو كمل على ما يرومه لجاوز الثمانين»: السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٢.

ومن المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مصر جمال الدين بن واصل وأبو المحاسن بردي[1] وابن إياس وشمس الدين بن أبي السرور والسيوطي. وقد ولد السيوطي في بلدة أسيوط بمصر، وألّف من الكتب ما لا يمكن للمرء أن يقرأه في حياته[2].. ومن علماء بغداد لدينا عبد اللطيف[3] الذي كان معاصرًا لصلاح الدين الأيوبي، وألّف كتابًا تحدث فيه بالتفصيل عن حوادث وأحوال مصر. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الأوروبية وحظي باهتمام كبير[4].

وقد اشتهر من المؤرخين الطبري، الذي ولد في طبرستان في القرن الرابع الهجري. وكان الطبري قد تعلم في بغداد واشتغل في علوم الشريعة ولكنه وضع أيضًا تاريخًا شاملاً اختصره بنفسه فيما بعد[5].

وبعد قرن برز المسعودي الذي اشتهر في أكثر من علم. وقد صنّف المسعودي مؤلفين في أكثر من عشرين مجلدًا: الأول «أخبار الزمان» والثاني

---

(١) الصواب تغري بردي.

(٢) من المعروف أن السيوطي ترك مئات المؤلفات في مجالات معرفية عديدة، طبع بعضها ولايزال البعض الآخر مخطوطًا. وقد أحصى الباحث إياد الطباع في العمل الببلوغرافي الذي أصدره مؤخرًا ٣٣١ مؤلفًا مطبوعًا للسيوطي و٤٣١ مؤلفًا مخطوطًا في مكتبات معروفة بالإضافة إلى ٤٣٢ مؤلفًا ما يزال ضائعًا أو مجهول المكان: إياد خالد الطباع، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي: معلمة العلوم الإسلامية، دمشق (دار القلم) ١٩٩٦، ص ٣١٢-٣١٣ و٣١٤-٤٠٥.

(٣) المقصود هنا الطبيب والمؤرخ عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧-٦٢٩ هـ).

(٤) المقصود هنا «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، الذي حققه أحمد غسان سبانو، وصدر بدمشق عن دار قتيبة عام ١٩٨٣.

(٥) المقصود هنا «تاريخ الرسل والملوك» الذي يشتهر أيضًا بـ «تاريخ الطبري».

«الكتاب الأوسط». ولدينا في هذين المؤلفين معلومات واسعة، ولكن بعض الأمور للأسف اعْتُبِرت غير صحيحة. وقد ألّف المسعودي أيضًا كتابًا آخر بعنوان «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

أما ابن الأثير فقد درس في بغداد ثم انسحب إلى الموصل ليؤلف هناك كتابه «الكامل في التاريخ». وقد أضاف إليه أبو طالب علي ملحقًا بحوادث الثلاثين سنة اللاحقة، الذي ترجمه مولانا نجم الدين نزاري إلى اللغة الفارسية. وبالإضافة إلى ذلك فقد صنّف عدة مؤلفات أخرى في التاريخ.

ومن مؤرخي مصر كان النويري. وقد قدّم في تاريخه الذي جاء في عشرة مجلدات معلومات مفصلة عن أخبار وأحوال العرب قبل الإسلام[١]. وبعد النويري صنّف ابن الفرات تاريخًا في عشرين مجلدًا[٢]، بينما قام أحمد عربشاه بوضع مؤلف تاريخي شامل عن تيمورلنك[٣].

---

(١) الصحيح أن موسوعة النويري «نهاية الأرب في فنون الأدب» اشتملت على خمسة فنون (السماء والإنسان والحيوان والنبات والتاريخ) في واحد وثلاثين مجلدًا، أخذ منها التاريخ لوحده واحدًا وعشرين مجلدًا تناولت تاريخ العرب قبل الإسلام وبعد ظهور الإسلام، وخصّ مصر بأربعة مجلدات تحدث فيها عن الدول المتعاقبة حتى وفاته في ٧٣٣ هـ.

(٢) المقصود كتابه «الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك» أو «تاريخ الدول والملوك» الذي بقي منه فقط ثمانية عشر مجلدًا متوزعة على مكتبات باريس ولندن والفاتيكان ... إلخ: د. محمد كمال الدين علي، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٢، ص ٤٣-٤٩.

(٣) المقصود كتابه «عجائب المقدور في أخبار تيمور» الذي طبع لأول مرة بالقاهرة في ١٣٠٥ هـ وصدر مؤخرًا في طبعة جديدة عن وزارة الثقافة السورية في ٢٠٠٨.

في القرن السابع الهجري برز ابن واصل الذي اختصر تاريخ الطبري، وكذلك ابن الجوزي الذي صنّف تاريخًا بعنوان «مرآة الزمان». وكان العتبي قد ألّف تاريخًا في القرن الخامس الهجري عن السلطان محمود الغزنوي[١]، بينما صنّف ابن قتيبة معجمًا عن الشعراء العرب[٢].

وقد برز في الأندلس الكثير من المؤرخين، الذين صنفوا الكثير من المؤلفات سواء فيما يتعلق بالأندلس والمغرب أو ما يتعلق بالتاريخ العام.

وكان ابن قتيبة قد ألّف في القرن الثالث كتابًا خصّصه للفتح الإسلامي للأندلس. وفي ذلك القرن أيضًا صنّف أحمد بن محمد مؤلفًا شاملاً ومهمًّا عن الشعراء المعروفين والخلفاء الأوائل للأندلس وعن أحوال دولة الخلافة هناك[٣]. ومن مؤرخي القرن الخامس الهجري لدينا ابن الفرات الذي صنّف معجمًا لشعراء وعلماء الإسلام. أما ابن الخطيب الذي عاش في غرناطة خلال القرن الثالث الهجري فقد ألّف تاريخًا شاملاً كشف فيه الكثير من التفاصيل غير

---

(١) المقصود كتابه «اليميني» الذي يغطي سنوات حكم السلطان محمود الغزنوي حتى ٤١١هـ/١٠٢٠م، والذي يعتبر التاريخ الوحيد الذي أرخ للسلطان محمود خلال حياته: محمد ناظم، السلطان محمود الغزنوي حياته وعصره، ترجمة عبد الله سالم الزليتني، بيروت (المدار الإسلامي) ٢٠٠٧.

(٢) المقصود هنا ابن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ/ ٨٢٨-٨٩٩م) وكتابه «الشعر والشعراء».

(٣) يبدو أن المقصود هنا أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨هـ) وكتابه «العقد الفريد» الجامع للتاريخ والأدب، ولكنه خصصه للمشرق، ولم يشر فيه إلى الأندلس وأهلها إلا فيما يتعلق به وبشعره.

المعروفة عن الأندلس والمغرب[١]. وقد تُرجم تاريخه هذا إلى اللغات الأوروبية. وقد اعتمد المقرّي، الذي كانت له شهرة كبيرة، على الكثير من المعلومات التاريخية الواردة في كتاب ابن الخطيب. وكان المقرّي قد صنّف مؤلفًا شاملاً عن تاريخ الأندلس[٢]، كما أنه صنّف «سيرة النبي» ووضع تعليقًا على مقدمة ابن خلدون. ومن علماء الأندلس في القرن السادس الهجري القيسي، الذي صنّف أيضًا معجمًا عن شعراء وعلماء الإسلام في القرن الخامس ورتبه على حروف الأبجدية[٣].

وقد ألّف ابن الخيام تاريخًا شاملاً عن الأندلس، كما أن ابن صبيح صنّف مؤلفًا في القرن السابع الهجري عن قدوم المرابطين والموحدين إلى الأندلس. وقد صنّف ابن حارث الحسن مؤلفًا شاملاً عن تاريخ القضاة[٤]، كما أن شهاب الدين أحمد الفاسي ألّف تاريخًا شاملاً مهمًّا. وقد اختصر هذا التاريخ فيما بعد الحاج شطيلي.

---

(١) من أشهر مؤلفات ابن الخطيب «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«إكمال الأعلام» الذي نشر الجزء الثالث منه بعنوان «تاريخ المغرب في العصر الوسيط»، وبتحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني في الدار البيضاء، ١٩٦٩.

(٢) المقصود هنا كتابه «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب».

(٣) قد يكون هنا المقصود محمد بن أحمد بن عثمان القيسي (توفي ٤٨٠ هـ) الذي اشتهر بديوان شعر مرتب على حروف المعجم.

(٤) يبدو أن المقصود هنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد الحسن النباهي الأندلسي (٧١٣- بعد ٧٩٢ هـ/ ١٣١٣- بعد ١٣٩٠) الذي ألف «تاريخ قضاة الأندلس»، والذي حقق مؤخرًا في طبعة جديدة ببيروت (دار الكتب العلمية) ١٩٩٥.

ونظرًا لأنه يمكن بأسماء المؤرخين فقط أن نملأ مجلدات فقد رأينا هنا بعد أن ذكرنا أشهر المؤرخين العرب أن نكتفي هنا بذكر أهم المؤرخين الذين ألّفوا باللغة الفارسية.

ففي عهد السلطان أبو الغازي حسين من قبيلة تيمور، أي في القرن التاسع الهجري، برز همام الدين ميرخندي الذي كان يحظى برعاية الوزير علي شير، والذي ألّف تاريخًا شاملاً وصل في حوادثه إلى عهد السلطان شاه رُخ. وقد اشتمل هذا التاريخ على الكثير من المعلومات عن المشرق الإسلامي. أما ابن المؤرخ المذكور أعلاه هندميري فقد وضع تاريخًا عن والده، كما صنّف تاريخًا مهمًّا بعنوان «حبيب السير» يتضمن حوادث وأحوال السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري والسنوات الأولى من القرن العاشر الهجري، أي الفترة التي تلت وفاة والده. وقد كتب هذا التاريخ بالاستناد إلى الوثائق الرسمية (الفرمانات والسجلات ... إلخ) التي كانت معروفة ومستخدمة في العالم الإسلامي حتى السنوات الأولى للقرن الثامن الهجري. أما المؤرخ المعروف رشيد الدين فقد ألف تاريخًا عن المغول[1]، بينما ألّف شريف الدين علي كتابًا عن تيمورلنك. وقد صنّف دولت شاه معجمًا عن الشعراء.

(١) المقصود «جامع التواريخ» للطبيب والمؤرخ والوزير رشيد الدين الهمذاني ٦٤٥-٧١٨هـ/ ١٢٤٧-١٣١٨م. للمزيد عنه انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، القاهرة ١٩٦٧.

## [المعاجم والموسوعات]

لقد أبدع العلماء المسلمون في الجغرافيا والتاريخ والمعاجم المرتبة حسب الحروف الأبجدية، وهي الأعمال التي تعتبر في أوروبا الآن مفيدة جدًّا. أما في اللغة العربية فإن مثل هذه المؤلفات لا تُعَد ولا تحصى. وكما أن لدينا الكثير من المعاجم الجغرافية التي تتضمن الكثير من أخبار وأحوال المدن والدول والجبال والشخصيات وغير ذلك، مثل «معجم البلدان» لياقوت الحموي وعبيدة البكري[1]، فلدينا أيضًا المعاجم التي تتضمن أسماء وسير الشخصيات التي اكتسبت شهرة في السياسة أو في العلم. وكذلك هناك الكثير والكثير من المؤلفات التاريخية التي ذكرنا بعضها أعلاه، ونذكر بعضها هنا: «مكتبة الحكماء» للزوزني و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة وأحمد بن قاسم[2] و«وفيات الأعيان» لابن خلكان و«معجم الأدباء» لياقوت الحموي و«طبقات النحاة» للسيوطي، وغيرها.

---

(١) المقصود هنا أبو عبيد البكري (٤٣٢-٤٨٧هـ/١٠٤٠-١٠٩٤م) وكتابه «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع».

(٢) المقصود هنا «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لأحمد بن قاسم بن أبي أصيبعة، الذي حقّق مؤخرًا: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، بيروت (دار الحياة) ١٩٦٥.

أما كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، أحد علماء عهد السلطان مراد الرابع، فهو قمة في المتعة بمجال التاريخ. ففي هذا الكتاب لدينا ١٨٥٠٠ شخصية مع تعريف بها وبأعمالها.

## الحرف والفلاحة

الدين الإسلامي يمنع ويكره الكسل بشكل صارم. وقد عمل المسلمون واجتهدوا لأنهم كانوا مأمورين بذلك. وهكذا فقد كانت أراضي المسلمين في آسيا وإفريقيا وأوروبا من أفضل الأراضي وأكثرها إنتاجًا. وكانت هذه البلاد قد تحولت إلى بلاد مدمرة نتيجة لحروب الرومان مع الشعوب الأخرى، إلا أنها أصبحت حديقة العالم مع عمل وعلم ومعارف المسلمين. فقد أنتج المسلمون كميات كبيرة من مختلف المنتوجات الزراعية في كل مكان بالأندلس والمغرب وشمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام والعراق وبلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وغيرها. وقد استخرج المسلمون المعادن من باطن الأرض واستخدموها وطوروا الكثير من الحرف. كما شُقَّت الطرق وحُفِرت الآبار وبُنِيت الأحواض واستراحات القوافل وغير ذلك لضمان الاستقرار والأمن في الطرق. وقد تطورت الملاحة أيضًا. فبفضل البوصلة التي اخترعوها تمكن المسلمون من أن يتجولوا وأن يبحروا في المحيطات. وبفضل التجار وصلت المنتجات الزراعية والمنتجات الحرفية للمسلمين

إلى أرجاء العالم. وقد عقدت اتفاقيات تجارية مع الهند والصين وزنجبار، وتحولت عدن والبصرة وكابل وغيرها إلى مراكز تجارية، وأصبحت القوافل التجارية تجوب أرجاء الدول الإسلامية من الشرق إلى الغرب. وقد أدى التقدم في علم الكيمياء واستخراج الألوان واستخراج المعادن وتطور علم الميكانيكا واختراع الأدوات الجديدة التي أصبحت تستخدم في الحرف والزراعة إلى أن يصبح العمل في الزراعة مجديًا أكثر. كما أن العمل في الحرف والتجارة لم يكن معيبًا، كما هو الأمر لدى الشعوب الكسولة، بل كان أمرًا مرغوبًا ومقبولاً. وهكذا فقد تكاثرت الثروة في كل مكان بدول العالم الإسلامي. وقد أدى تكاثر الثروات إلى الرغبة في الرفاهية، وبالتحديد في الملبس والمأكل والعمران وغير ذلك. وكانت المعرفة المكتسبة في كل حرفة تساعد على تحقيق هذه الرغبة في الرفاهية. وهكذا مع تبلور الأناقة الواضحة في الحرف المتعلقة بالبناء فقد أُبْدِع الكثير من الرسوم الفنية بقصور الحمراء التي تشهد على حيوية المدنية الإسلامية. وفي هذا الإطار بُنِيَ الكثير من الجوامع والقصور والمباني الرائعة.

في مجال النحت لم ينجز المسلمون مثل ما أنجزه اليونانيون، ولكن المسلمين أبدعوا في الرسم وتصوير الأزهار الجميلة واستخدام الكتابة الفنية التي يطلق عليها الأوروبيون «الأرابسك»، أي ما يخص العرب. وفيما يتعلق بالعمارة لم يتمكن الفرنجة من تجاهل العمارة الإسلامية والتأثر بها، حيث إن العمارة الأوروبية الحالية تعتمد على الأقواس والقباب التي أبدعها المسلمون.

ونظرًا لأن الثروة ومستوى المعيشة يؤثران في ازدياد عدد السكان فإن الكثير من المدن الإسلامية التي يبلغ عدد سكانها الآن ٤٠-٥٠ ألف نسمة كانت تعد مليون نسمة في ذلك الوقت. فالكثير من المناطق التي تحولت إلى خرائب كانت مراكز تجارية وغنية في ذلك الوقت، وكثير من المناطق التي تحولت إلى صحار الآن كانت فيما مضى غنية بالزراعة، وكانت تبدو مثل الحدائق الجميلة.

كان المسلمون في الأندلس والمغرب يسيطرون على التجارة في البحر المتوسط. وكانت موانئ هذا البحر مليئة بالسفن، وفي بعض الأحيان كانت هذه السفن تعبر مضيق سبتة[1]. وكان المسلمون على وشك اكتشاف أمريكا لأنهم كانوا يعتقدون أن نصف العالم الآخر لا يمكن أن يكون خاليًا. ولكن المسلمين ركزوا جهودهم أكثر على المحيط الهادئ وقاموا بجهود متواصلة للتوغل في ذلك المحيط، إلا أن الظروف أرغمتهم على العودة وعلى ترك هذا الفخر لكريستوفر كولومبوس.

كان المسلمون في الشرق ينطلقون من خليج البصرة ومن باب المندب ويبحرون في بحر عمان والمحيط الهادئ إلى الهند. وكما يفعل الإنكليز اليوم فقد تمكن المسلمون بواسطة التجارة من السيطرة على الساحل الشرقي لإفريقيا إلى رأس الرجاء الصالح، وأدى ذلك إلى اعتناق معظم السكان للإسلام وقبولهم اللغة العربية. وبالإضافة إلى ذلك فقد أنشأ المسلمون مراكز تجارية في الكثير من

---

(١) المقصود هنا مضيق جبل طارق.

الجزر قرب سواحل الهند والصين وجزر المحيط الهادئ. وقد تكاثر هناك عدد المسلمين ليصل إلى عدة ملايين ونجوا بدينهم من المالاويين والهوشيت من سكان جزر المحيط الهادئ. وقد تحول هؤلاء المسلمون إلى همزة وصل وساعدوا بدورهم على نشر الإسلام حتى بورينو.

وعلى حين أن الأوروبيين كانت تواجههم المشاكل والصعاب في الوصول إلى الصين فإن المسلمين قد توغلوا في الصين من ناحية الشمال والجنوب بواسطة الطرق البرية. وبواسطة هذه الطرق وصلت منجزات المدنية الإسلامية إلى بكين. كما تمكن المسلمون بواسطة الطرق البحرية من أن يصلوا إلى مدينة كانتون بشرق الصين، وتمكّنوا من تثبيت وجودهم هناك. وقد وجدت السلطات الصينية نفسها مضطرة لتعيين قاض من بين المسلمين ليحكم فيما بينهم ويساعدهم في القضايا التي تثار في المحاكم هناك.

وقد تمكّن المسلمون من السواحل الشرقية والغربية لإفريقيا من التوغل إلى الداخل إلى مناطق الزنوج، التي لم يتمكن الأوروبيون من اكتشافها في ذلك الحين. وقد توغل المسلمون في تلك المناطق لأجل التجارة ولأجل إنقاذ الزنوج من حالة التوحش. وهكذا فقد دخل الزنوج أيضًا في دائرة المدنية الإسلامية.

## بعض الاكتشافات

لا يوجد شك الآن في أن اكتشاف الورق والبارود والبوصلة تمّ على يد المسلمين، وهي التي ينسبها بعض المؤرخين إلى الصينيين. ففي بداية القرن السابع الهجري كان الورق يصنع من الخرق في سمرقند وبخارى. وبعد قرن من ذلك أصبح الورق يصنع في دمشق، وهو ما يذكره الكُتاب اليونانيون بالقسطنطينية. ونظرًا لأن القطن كان يُزْرع في الأندلس فقد كان الورق يصنع هناك من تيلة القطن، ويُصَدر إلى فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وألمانيا.

أما البارود فقد كان يستخدم من قبل المسلمين منذ القرن الأول الهجري. ففي بعض التواريخ التي أُلِّفت في ذلك الوقت، يرد أنه في حصار مكة وفي فتح مصر وتونس وغرناطة كانت تلقى قذائف بقوة البارود تحدث صدًى قويًا.

ومن المعروف أن البوصلة كانت تُستخدم في البحر كما كانت تُستخدم في البر لتحديد اتجاه القبلة ولمساعدة القوافل على تحديد اتجاه سيرها. ولذلك ليس من الصحيح أن الصينيين هم أول من استخدموا البوصلة[١].

(١) يبالغ هنا ش. سامي في نفي نسبة هذه الاكتشافات للصينيين، مع أن الفضل يبقى مع ذلك للمسلمين الذين نشروها في العالم. للمزيد: ألكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب، الكويت (سلسلة عالم المعرفة) ١٩٩٣، ج ١ ص ٢٣٥-٢٣٦.

## خاتمة

إن الاكتشافات التي تمت في العلوم والمعارف والتقدم في الحرف والتجارة التي ذكرناها في هذا الكتيب إنما تكفي لتأكيد وإثبات ما وصلت إليه المدنية الإسلامية. أما عن السبب في تراجع وجمود الشعوب الإسلامية، التي تعيش الآن في هذه الحالة، فسنحاول أن نشرحه في الكتيب الذي سيصدر عن «مكتبة الجيب» بعنوان «الشعوب الإسلامية: الماضي والحاضر والمستقبل»، وفي الكتيب الآخر «المدنية الأوروبية» الذي سنوضح فيه أن المدنية الأوروبية الحالية قد وُلِدت من المدنية الإسلامية[1].

﴿نهاية المتن﴾

(١) كان ش. سامي يعد القراء بمؤلفات كان يرغب في إنجازها ولم تسعفه الظروف بذلك، وهذه من ذلك حيث إنها لم توجد بين مخطوطاته التي تركها.

# همة الهمام

في

# نشر الإسلام

لأضعف العباد

شمس الدين سامي بن خالد الفراشري

طبع برخصة نظارة المعارف الجليلة

تاريخ الرخصة ٣ رجب ١٣٠٢ وعددها ١٣٥

في قسطنطينية

بمطبعة (مهران) الكائنة في طريق الباب العالي المرقمة بعدد ٧

١٣٠٢ هـ

غلاف الطبعة الأصلية للرسالة

# رسالة

# همة الهمام في نشر الإسلام

طُبِعت لأول مرة في عام (١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما قال ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، [آل عمران/ ١٩] والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد خير الأنام، وعلى آله وأصحابه الأعلام، وعلى من ولي المسلمين من بعدهم من الخلفاء والأمراء والعلماء العظام، الذين أتوا بدين الله في أقطار العالم، ونشروا أنواره بالسيف والقلم، فاندفع ظلام الكفر من الأمم، ولا سيما على من هو أمير المؤمنين حالاً وحاميهم في المغارب والمشارق، لازال ظلّ سعادته عن المفارق، خليفة الزمان، مفخر آل عثمان، السلطان (عبد الحميد خان) ابن السلطان عبد المجيد خان، ربّي احفظه فإنه غوث الإسلام في كل حال وآن، وأنت الموفق المستعان.

أما بعد، فيقول العبد الحقير، المحتاج إلى رحمة ربّه القدير، شمس الدين سامي فراشري، لـمّا كان لسان العرب لسانًا عامًّا لجميع المسلمين، ولغة علمية مشتركة بين العلماء الموحدين، أردت تأليف هذه الرسالة الموجزة بهذا اللسان، مع قلة ممارستي له لألفتي باللغة التركية. فرجائي من حضرات القارئين أن يعفوا عن الخطأ الواقع، ويصفحوا عن السهو الصادر، لأنني ما قصدت إظهار العلم وإبراز الاقتدار، وإنما قصدي أن يكون نفعها عامًّا لجميع إخواننا في الدين. فاعلم

سلّمك الله أن هذه الرسالة يبحث فيها عن كيفية انتشار الإسلام في الأقاليم، وعن أحوال الأمم الإسلامية والممالك التي أسلم أهلها قديمًا أو جديدًا، فنفعها ظاهر، ولزومها لكل مؤمن باهر.

لا يخفى أن ظهور الإسلام قد وقع بين العرب لأن نبيّنا ﷺ كان عربيًّا، فنزل القرآن باللسان العربي. وكان العرب في الجاهلية متفرقين على قبائل متشتّتة لا اتحاد بينها ولا اتفاق، وكانت كل منها تتكلم بلغة مخصوصة، ومازال الحرب والنفاق دائمًا بينها. فلما ظهر الإسلام اجتمع الجميع وصاروا أمة واحدة، ونزل القرآن على أفصح لغاتهم، فبطل الآخر. وما بقي الإسلام منحصرًا في جزيرة العرب إلا إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وكان العرب من قبل قد اكتفوا بالبادية والخيام والجمال، ولم يسبق لهم استيلاء على الأقوام والممالك قط، فلما اتّحدوا وتنوّرت أفكارهم بأنوار الإسلام جاءتهم قوة جديدة وغيرة روحانية حتى ضاقت جزيرة العرب عليهم، فخرجوا منها وأخذوا برّ الشام والعراق وفارس وخراسان ثم مصر وإفريقية. وكان حينئذ في كل قطر من هذه الأقطار أقوام وأمم مختلفة كالسريانيين والكلدانيين والفرس والقبط والبربر، فحذف الجميع في زمن قليل وصاروا عربًا مستعربًا سوى أهل فارس وخراسان، فإن أهل هاتين القطعتين بقوا فرسًا، ولكن لما أسلموا اتخذوا العربي لسانًا أدبيًّا لهم، وأخذوا يقرءون ويكتبون بالعربي.

ثم تأخرت الفتوحات وانتشار الإسلام حينًا بحسب الاختلافات التي وقعت بين علي كرّم الله وجهه ومعاوية وفاجعة كربلاء إلى أن وقع السفر إلى المغرب الأقصى، وفتح الأقطار المعلومة اليوم باسم تونس والجزائر والمغرب بيد أمراء الدولة الأموية. ثم جاوز موسى بن نصير وطارق إلى قطعة أوروبا وأخذا الأندلس، وهي قطعة عظيمة جامعة اليوم لدولتي إسبانيا وبورتكيز[١]، وضمّوا عليها نصف مملكة فرانسه، وفتح أكثر جزائر بحر الروم كقبريس[٢] وإقريطس[٣]وسقلية[٤] وغيرها. وتوسّعت حينئذ الممالك الإسلامية في المشرق أيضًا، ففُتِح ما وراء النهر وخوارزم وأوطان الترك والتاتار وجوارهرات وكابل وكلات إلى حدود الهند والصين. ثم ظهر السلطان محمود السبكتكين وسفر في الهند وضمّ على الممالك الإسلامية بلادًا كثيرًا فيه، ونفع الإنسانية بمنع أحوال مدهشة من عادات الكفر كإحراق النساء حيًّا مع ميّت رجالهم. كذلك كملت الفتوحات الإسلامية المتقدمة في مدة مائة واحدة.

وكانت الخلافة بعد انقراض الأمويين قد تفرقت إلى فرقتين: خلافة المشرق أي الدولة العباسية، وحكومة المغرب أي الدولة الأموية التي تأسّست في الأندلس. وكان المسلمون حاكمين ومتصرفين بالاستقلال في جميع البلاد

---

(١) المقصود: البرتغال.

(٢) المقصود: قبرص.

(٣) المقصود: كريت، التي اشتهرت في المصادر الإسلامية باسم «اقريطش».

(٤) المقصود: صقلية.

من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، أي من حدود الصين وما وراء النهر إلى بحر المغرب ونصف فرانسه. وكان اللسان العربي منتشرًا في جميع هذه الممالك التي هي نحو من ثلثي الربع المسكون المعلوم عند المتقدمين. فلما فرغ المسلمون من الفتوحات والغزوات، أخذوا يشتغلون بالعلم والحرف والصنعة، ولم يكتفوا بالعلوم الدينية، أعني التفسير والحديث والفقه ولا بالعلوم الأدبية، بل صرفوا مقدورهم في العلوم العقلية أيضًا اتّباعًا لقول من قال (اطلبوا العلم ولو في الصين) وأخذوا يجمعون مؤلفات حكماء اليونان والهند والفرس وينقلونها إلى العربي، وفتحت مدارس عظيمة ببغداد ومصر وبخارا وقرطبة وسائر المدن والأمصار، فكان الطلاب يتهاجمون من كل جهة إلى تلك المدارس لتعلم العلوم النقلية والعقلية. فظهر بين الإسلام علماء وحكماء يتسابقون بحكماء اليونان القديم، بل يتقدمون عليهم في كل فن كالحكمة والطب والنجوم والعلوم الرياضية والطبيعية.

ومن المعلوم أن العلماء والحكماء المسلمين الذين صنّفوا في هذه الفنون قد بلغ عددهم ما لا يمكن تعداده في هذه الرسالة، ومصنفاتهم بحيث لا تحصى ولا تعداد وأما العلماء الذين صنّفوا في التأريخ والأدبيات والفقه والعلوم الدينية فهم أكثر مما يمكن تعداده. كذلك كان أحوال الإسلام في عهد الحكومتين، أي العباسية في المشرق والأموية في المغرب. ودام هذا الحال نحو ست مآت. وكانت حينئذ العلوم والمعارف والصنايع والتجارة والحضرية منحصرة بممالك الإسلام وبأيادي المسلمين. ثم تسلّط الضعف والفتور على الحكومتين، وغلبت على

رجالهم الرخاوة، وهجم عليهم الأعداء، أي كفار المغل من المشرق والإفرنج من المغرب، فهدموا وخرّبوا وقتلوا وحرقوا حتى لم يبق من أعمال المسلمين إلا قليل.

وكانت تلك الأقوام من الأقوام الوحشية. فأما عساكر جنكيز فهدروا دم الرجال والنساء والأطفال من المسلمين بغير حق وبلا سبب، وهدموا كل ما وجدوا أمامهم، وأهلكوا الأنفس والكتب والمدارس كلها. وأما الإفرنج فكانوا حينئذ على أشدّ جهالتهم ولهم تعصب وبغض عظيم للمسلمين، فما قنعوا بإسقاط حكومتهم في الأندلس بل قام رهابينهم وعقدوا محاكم يعتبر عنها الإبليس، وأخذوا يحكمون على المسلمين المطيعين لهم بالإحراق. فكثير من هؤلاء المساكين تنصّروا ليخلّصوا أنفسهم، ولكنهم حرقوا أو قتلوا بإشارة الرهابين بعد أن تنصّروا، ولم يبق في كل بلاد الأندلس مسلم. كذلك فات للإسلام أندلس، أي بلاد إسبانيا وبورتكيز ونصف فرانسه وسقلية ونصف إطاليه. وما اكتفى الإفرنج بهذه المظالم الفاجعة، بل تجمعوا من كل جهات أوروبا تحت لواء الصليب، وهجموا على الممالك الإسلامية مرارًا، ولكن لم يقتدروا على شيء في أقطار آسيا ولا في جهات الإفريقية، وإنما اقتدروا على إخراج المسلمين من أوروبا. فبقي عملهم هذا عارًا عظيمًا عليهم يذكر في التواريخ إلى يوم القيامة؛ لأن المسلمين إذا استولوا على أندلس كانوا يُعْمِلون بهم الرفق، ويحكمون بالعدل والإحسان، وهذا مثبت باعتراف مؤرخيهم.

وأما طائفة المغل فلم يكن لهم عدوان خاص على المسلمين، ولكن كان سفك الدم عندهم فعلاً سهلاً جدًّا، وكانوا يتلذّذون به. فلما فرغوا عن الاستيلاء، وجاء النوبة للحكم والرياسة، أدركوا أنهم غير مقتدرين للرياسة على قوم أفضل منهم من كل الوجوه، فاختاروا وزراءهم وعمّالهم من بين المسلمين، وأسلم أكثرهم، وكثير منهم جهدوا لنشر الإسلام في جهات الهند وممالك التاتار والمغل حتى الصين.

كذلك اندفعت الداهية العظيمة التي أصابت على المسلمين من الإفرنج والمغل، ولكن بقي منها خسار عظيم للمسلمين وهو من جهتين، إحداهما مادية والأخرى معنوية. أما الخسار المادي فاسترداد الأندلس وسائر جهات أوروبا من يد أهل الإسلام. وأما المعنوي فانقراض العلوم والمعارف والصنايع الإسلامية؛ لأن مهاجمات الكفار واستيلاء الأقوام الوحشية على ممالك الإسلام امتد زمانًا طويلاً، وكان الجهل يحكم حينئذ في كل أقطار العالم، والمحاربات تتعاقب، فكانت الأرض كأنها عجين طين ودم. فقُتِل العلماء، وهُدِم المدارس، وحُرِق الكتب، وأُخِذ كل فرد يشتغل بالسيف والحربة، فترك العلم والصنعة، وفقد البلاد أمصارها والأمصار سكانها فبقي الممالك كأنها طلل ولا ترى عليها إلا عظامًا. والممالك التي بقيت في يد المسلمين كانت منقسمة إلى دول صغيرة، وكان في كل بقعة أمراء يقاتلون بعضهم البعض ويسفكون دم إخوانهم. فمن رأى المسلمين في هذا الحال ظن أن الإسلام كاد أن ينقرض، ولكن الحق يعلو

ولا يعلى عليه، والشمس إنما تستتر حينًا بالسحاب ولا تُحْذف أبدًا. فالغالبون على المسلمين صاروا مغلوبين للإسلام، وإن فات للمسلمين ممالك في المغرب كأندلس وسقلية فهم اكتسبوا ضعف هذا في الهند والصين وجزاير بحر المحيط وبلاد الزنج في إفريقية وفي بلاد الصقلاب[١] إلى جزيرة قريم[٢].

وكان ملوك سلجوق من الأتراك قد فتحوا أكثر ممالك الروم، لكن المسلمين كانوا محتاجين في ذلك العصر لحامٍ عظيم صاحب قدرة ليحافظهم عن تسلط الأعداء ويؤمنهم عن الفتن الداخلية. فحصل هذا المرام بظهور الدولة العثمانية، فإن رجال هذه الدولة كانوا متّصفين بالشجاعة والصلابة الدينية، وكانوا من أصحاب العدل والإنصاف، فما ارتكبوا الظلم ولا سفك الدماء بلا سبب، كما فعل أكثر طوائف الملوك، وما تحملوا متاعب الحرب ومشاق السفر إلا لنشر الإسلام وصيانة المسلمين وإعلاء كلمة الله، وكان أملهم خالصًا، وغاية أعمالهم ابتغاء مرضاة الله بنفع المسلمين، فجاءهم نصر من الله واكدهم في الغزوات، فشمروا عن ساعد الجهد والاجتهاد، وفتحوا الروم أي بلاد أناطولي كاملاً في زمان قليل، وجاوزوا البحر ووضعوا قدمهم في أرض أوروبا ففتحوا البلاد المعروفة بروم ايلي[٣] واستولوا على البلغار والصرب والأرنئوط، وأخذوا مملكة يونان، ثم فتحوا قسطنطينية البلدة العظيمة وجعلوها دار سلطنتهم إلى الآن. وكذلك

(١) المقصود: بلاد السلاف.

(٢) المقصود: شبه جزيرة القرم.

(٣) المقصود: بلاد الروم (كما سيستخدم ذلك لاحقا)، وبالتحديد بلاد البلقان.

فتحت للإسلام ممالك جديدة واسعة، ولكن الممالك القديمة كانت متشتّتة بين دول صغيرة عاجزة للحماية وقادرة للفتنة والفساد، فظهر اللزوم للدولة العثمانية بإرجاع النظر من أوروبا إلى آسيا. فعطّل سلاطينها الغزاء[١] حينًا ليجمعوا الممالك الإسلامية تحت رايتهم، فأخذوا برّ الشام والعراق، ثم سافر السلطان سليم إلى مصر، وتسلّم أمانات الخلافة من يد خليفة لم تكن له مكنة على شيء حينئذ ولم يكن خليفة إلا بالاعتبار.

وكذلك اجتمعت الخلافة والسلطنة في يد من كان أهلاً لهما، وفتح للإسلام دور جديد، كأنه قد رجع الدور المسعود الذي رأيناه في زمان عمر بن الخطاب وفي خلافة بني أمية وبني عباس، فسرّ قلوب المسلمين وحصل الفرج بعد الكرب. ثم انعطف النظر مرة أخرى إلى جانب أوروبا، ففتحت بلاد مجار وترانسلواتيه وبسارابيه[٢] وغيرها من البلاد المعمورة، ودخل خانات قريم وقبجق وغيرهما من الخانات التاتارية تحت حماية الدولة العثمانية. وقد ظهر رئيس البحر خير الدين الشهير بباربا روس، فضمّ على الممالك العثمانية أكثر ممالك البربر كبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر، وحصل للدولة المشار إليها قوة كاملة في البحر، وسطوة تساوي سطوته البرية. ووقع هذا في عصر السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان، فكان الدولة العثمانية في ذلك العصر قد وصل إلى أقصى كمالاته، وكان جميع دول أوروبا يخافون سطوتها، ولم يكن دولة في

---

(١) المقصود: الغزو بمعنى الجهاد.

(٢) المقصود: بلاد المجر وترانسلفانيا وبسارابيا.

الأرض تساويها في القوة ولا في العلم والحضرية؛ لأن أهل أوروبا كانوا حينئذ بعيدًا جدًّا عن الحضرية التي نراها اليوم عندهم.

وأما الممالك الإسلامية التي لم تدخل في دائرة الدولة العثمانية، ففي الإفريقية هي المغرب الأقصى أي ممالك فاس ومراكش وبلاد الزنج كسودان وزنجبار وغيرها. وأما في آسيا فكانت أكثر من هذا؛ لأن إيران (أي ممالك فارس وخراسان وعراق العجم) وأفغان (أي جوانب هرات وكابل وقندهار وكلات) وممالك توران أو تركستان أي خوارزم وما وراء النهر وخطا وبلاد التاتار كلها والهند والسند لم تكن من الممالك العثمانية مع أنها ممالك إسلامية، وما أمكن للدولة العثمانية الاتساع إلى آسيا الوسطى مع اجتهاد بعض ملوكهم كالسلطان سليم خان. ولما حصل القوة والكثرة لأمم أوروبا وظهر في بلاد إفرنج دول نصرانية عظيمة الشوكة، فلا يخفى أن أول ما تأمّل النصرانيون هو الانتقام من المسلمين والغلبة عليهم. ولكنهم لم يقتدروا إلا على استرداد ممالك قليلة من الممالك النصرانية التي كان قد استولى المسلمون عليها من قبل، كبلاد مجار وبسارابيه وترانسلوانيه، وإنما وقع في أيادي النصرانيين بلاد قريم وقبجق في أوروبا والجزائر في إفريقية. وهاتان المملكتان كانتا تحت حماية الدولة العثمانية، لكنهما لم تكونا تحت إدارتها، فليكن هذا الأمر عبرة لمن اعتبر.

إنا أردنا أن نذكر إلى هنا فتوحات الإسلام والدول التي اجتهدت في نشر الدين وفي حماية المسلمين، وقد ذكرنا مجملاً كيف انتشر الدين المبين في أقطار

العالم بالغزاء. لكن لنشر الإسلام نوع آخر مهم، وقد أهمل المؤرخون ذكره، وهو انتشار الدين بنفسه بلا فاتح ولا سيف ولا جند. وهذا وإن لم يكن أكثر من النوع الأول ولكنه عسى أن يساويه؛ لأننا نرى اليوم أن أهل الإفريقية إلى ما وراء خط الاستواء كلهم وأهل أكثر الجزائر الواقعة في البحر المحيط الكبير وكثيرًا من أهل الصين ولاسيما أهل يونان مسلمون، ونحن نعلم أن هذه الممالك البعيدة ما استولت عليها دولة إسلامية أبدًا، فلا يخفى أن أهلها أسلموا بإرادتهم بإلهام من طرف الله تعالى أو بتلقين واقع من قبل أصحاب الرحلة والتجارة.

أما انتشار الإسلام بالغزاء فقد انقطع منذ دور السلطان سليمان، وأما انتشاره بالنوع الثاني فواقع اليوم أكثر مما كان في السابق، وهذا دليل واضح وبرهان قاطع على أن حامي الإسلام الحقيقي هو الله تعالى وروحانية نبيّه ﷺ، فيخلق الله تعالى سببًا في كل عصر لانتشار دينه بين عباده. فالسبب الأوفق لهذا العصر إنما هو التلقين والتبليغ، ومن أراد الجهاد اليوم فليختر مشاق السفر، وليسافر في الأقطار البعيدة. وفي هذا الجهاد غزاء وشهادة كما كان في الجهاد بالحرب؛ لأن من سافر في البلاد البعيدة والأقطار المجهولة لا يخلو من أن يتيسر له التوفيق بنشر الإسلام فيها فهو غاز، أو بأن يموت غريبًا أو مقتولاً فهو شهيد، وعلى كلا الأمرين هو سعيد في الدارين وله أجر عند الله. ووقع هذا الجهاد في كل عصر، وقد يقع في عصرنا هذا أكثر مما وقع في السابق؛ لأننا نرى ديننا المبين قد يتسع وينتشر كل يوم في الجوانب البعيدة من قطعتي آسيا وإفريقية، فكثر

ما يسلم قوم كامل في يوم واحد. وربّ ممالك إسلامية مازالت مجهولة عندنا وعند كل الناس. وقد وقع الرحلة من جانب الإفرنج في بلاد مجهولة في الإفريقية الجنوبية وفي الصين وجزائر البحر المحيط، وكانوا من قبل يظنون أهلها من عبدة الأصنام أو غير متدينين بدين أحد، فتعجبوا تعجبًا عظيمًا إذا وجدوهم مسلمين.

فتقرّر اليوم أن الإسلام منتشر في وجه الأرض أكثر مما يظنونه أهل جغرافيا والمؤرخون، وأن عدد المسلمين في الأرض أكثر مما كانوا يظنونه؛ لأن الإسلام قد ينتشر في زماننا هذا بلا حرب ولا صحة[١]، وربّ قوم يمسون كافرين ويصبحون مسلمين. وأينما طلع نور الإسلام محا الكفر كالثلج تحت حرّ الشمس في الربيع، ويظهر معه أزهار العلم والرفق والإنصاف، فيتزين البلاد ويترفه العباد وهم متحلّون بحلية البِشْر الكامل، التي هي من أركان الإسلام ومن نتائج الإيمان. فترى قومًا وحشيًّا كان أفراده عارية من حلية البشرية، وكانوا يأكلون لحم البشر، ويعيشون في الغارات والغابات كالبهائم، ويقتلون الغريب والمسافر ليأكلوه، ويرتكبون الفحشاء، ويبذلون عرض نسائهم وبناتهم، ولا يسعون ولا يكتسبون بل يسرقون وينهبون، وكانوا في غاية الوسخ واللوث حتى لابدّ لمن رآهم من أن يستكره ويتنفر منهم. فلما أسلموا تغيروا، وتبدلت طينتهم، فتراهم عائشين في حضرية ما، متحلّين بحلية الرفق والأدب، وهم من أهل العِرض والصلاح، ويراعون الغريب والمسافر، ويكرمون الضيف، ويكتسبون معيشتهم بسعيهم، ويعملون المعروف ويتّقون عن

(١) هكذا في الأصل، وربما المقصود: ضجة.

المنكر، ويتحصل الإنسية بينهم، ويتعلمون القراءة والكتابة، ويشتغلون بالحرف والصنعة، ويزال منهم اللوث والوسخ فهم طاهرون، حتى لابدّ لمن رآهم من أن يغبط حالهم، ومن كان رآهم قبل أن يسلموا فلا بدّ له من أن ينكر أنهم هم الذين كان رآهم. فكأنهم أمسوا بهائم وأصبحوا بشرًا. فوالله ما هذه إلا معجزة عظيمة من معجزات الإسلام.

ولسنا نعظم هذا الحال ونبالغه لنثبت علوّ ديننا المبين، بل هذه هي حقيقة لا ينكرها الكافرون، وأثبتها كلّ من سافر في تلك البلاد البعيدة من الإفرنج. وها نحن ننقل هنا لك شهادة بعض السيّاحين من علماء الإنكليز؛ حيث قال: «إنما الإسلام هو الدين الذي يطهر الأرض عن الأصنام والأوثان، ويمنع ذبح البشر وأكل لحمه، ويؤمّن حقوق النساء، ويحدد كثرة الأزواج بحدّ مشروع ومعقول، ويؤكد روابط أهل البيت بينهم، ويصير العبد والرقيق فردًا من أفراد العائلة، ويفتح له أبوابًا وطرقًا كثيرة إلى الخلاص والحرية، ويزكي الأخلاق العامة بقوة أركانه كالصلاة والزكاة وإكرام الضيف وتأمين المسافر، ويلقي في القلوب العدل والإنصاف والتصدّق، ويعلّم المتبوعين أن لهم وظائف كوظائف التابعين، ويؤسّس بناء الجماعة على أساسات قوية مطّردة، ويرهب الظالم بغضب الله، ويسلّي المظلوم والفقير الصالح برحمته وأجره وبسعادة أخروية. وهذه الحسنات إنما هي نبذة من النعم الكثيرة التي ترافق الإسلام دائمًا إذا استولى على أقوام غير متمدنة» انتهى.

ويمكن لنا أن نورد شهادات كثيرة واقعة في أهل الإنصاف بين الإفرنج الذين لم يقتدروا على كتم الحقيقة بعدما رأوها ظاهرة، وجرّبوها في رحلتهم، ولكن يكفينا ذكر رسالة ألّفها ونشرها راهب من رهابين الإنكليز الذي كان قد أُرْسل إلى إفريقية من جانب الجمعية المؤسّسة في لندره[1] لنشر النصرانية، وكان يسكن ويسافر في بلاد المغرب الكائنة في ما وراء خط الاستواء منذ عشرين سنة، ويسعى لتلقين دينه بين أقوام الزنج. فبعد هذا السعي الأليم والتجربة الطويلة، لما رأى أن أهل تلك البلاد لا يقبلون النصرانية، وأن الذين يقبلونها طوعًا أو كرهًا، وهم فئة قليلة جدًّا، لا يخلصون عن الوحشية القديمة بل يصيرون أشنع مما كانوا، وأن الإسلام يقبل عندهم طوعًا، ويبدّلهم إلى أقوام مأنوسة ويؤدّبهم بسرعة مستحيلة، تأمّل في الأمر بالحق والإنصاف، وكتب الرسالة المذكورة، وهو يبسط فيها هذا الحال على التفصيل، ثم يوصي للإفرنج أن يسعوا لنشر الإسلام بين الأقوام الوحشية إن أرادوا تخليصهم عن الوحشية وإدخالهم في دائرة الحضرية والمدنية. ويقول إن الإسلام هو السبب المجرد لتخليص أقطار الأرض البعيدة عن الشرك وعبادة الأوثان وذبح البشر تحت أقدام الأصنام، وإن النصرانية ليست بصالحة لهذا الأمر. وهذه الرسالة مشهورة، ولم يقتدر أحد على ردّها، ولكن وصيتها بقيت غير مسموعة؛ لأن الإفرنج ما أرادوا تخليص الأقوام الوحشية عن الوحشية، وإنما مرادهم هو الاستيلاء عليهم وضبط بلادهم، بل إمحاء هؤلاء المساكين بالكل كما وقع في أمريكا، وكما يقع كل يوم في جزائر البحر المحيط.

---

(١) المقصود: لندن.

ولا يخفى أن أهل أوروبا قد أسّسوا جمعيات مخصوصة لنشر دينهم في الأقطار البعيدة، ويصرفون مبالغ كثيرة لهذا المقصد، وكثر ما يرسلون سفائنهم بجنود ومدافع لإمداد رهابينهم المرسلين أو لحمايتهم. ومع ذلك ليست النصرانية تنتشر إلا قليلاً. أما الإسلام فيترقى وينتشر بنفسه في أقطار الأرض، ويتكثّر أفراده يومًا فيومًا. وهذا من فضل ربي، فسبحان من قال ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾. [الإسراء/٨١] ولو كان يسعى لنشر الإسلام كما يسعى لنشر النصرانية لكان الإسلام دينًا عامًّا في قطعتي آسيا وإفريقية وجزائر البحر المحيط كلها.

وقد وقع في الأعصار[١] الماضية جهد عظيم لنشر الإسلام في أوروبا، فاجتهد أمراء الدولة الأموية في المغرب، وسلاطين الدولة العثمانية في المشرق، وتيمورلنك في الشمال، ولكن عدد المسلمين في هذه القطعة قليل جدًّا، وأكثرهم قد هاجروا فيها حين الفتح. وأكثر من أسلم من أهل أوروبا الأرنئوط وأهل بوسنة الذين تلقوا الدين الحق عن يد فاتحي الدولة العثمانية، ولهم عصبية كاملة في الدين، ولكن عددهم لا يتجاوز مليونًا ونصفًا[٢].

---

(١) المقصود: العصور.

(٢) أما الآن فعددهم في البلقان يقترب من عشرة ملايين.

وأما في عصرنا هذا فنشر الإسلام في قطعة أوروبا متعسّر جدًّا؛ لأن أهل أوروبا اليوم منقسمون إلى فرقتين، فرقة المعتقدين وفرقة المنكرين. أما المعتقدون فهم متعصبون في النصرانية ولهم بغض عظيم للمسلمين. وأما المنكرون فمنهم من آمن بالله وحده ولم يؤمن بالآخرة ولا بالوحي، ومنهم من أنكر الله سبحانه وتعالى، وكلهم متفقون على أن الإسلام أحق الأديان وأصلحهم، ولكنهم يزعمون أنهم مستغنون عن الدين. فلهذا قلنا إن نشر الإسلام في قطعة أوروبا متعسّر بل مستحيل. وقد اتفق المحققون على أن الدين المستقبل لقطعتي آسيا وإفريقية وجزائر البحر المحيط إنما هو الإسلام وحده، وأن للنصرانية قطعتيْ أوروبا وأمريكا فقط.

وذكر بعض أهل الرحلة من علماء الروس أن بلاد الصين الواسعة ستصير أوطان المسلمين فقط، وأنه بعد عصر أو عصرين لا يبقى نفر من أهل الصين الذين بلغ عددهم أربع مائة مليون إلا وقد أسلم؛ لأن الإسلام يترقى هنالك يومًا فيومًا، والمسلمون يتزايدون تزايدًا عظيمًا. وقد ترهّب أهل أوروبا عن هذا؛ لأن أهل الصين وإن كانوا أكثر من كل أمة، بل عددهم أكثر من أمم أوروبا جميعها، لكنهم كرعية أغنام؛ لأن دينهم الحاضر غير مساعد للحرب والشجاعة ولا للتمدّن، وإن أسلموا واتّبعوا دينًا يأمرهم الغزاء ويبشرهم بالشهادة إذا ماتوا لدينهم ووطنهم، فمن يقتدر حينئذ أن يدافعهم؟ وكذلك في الهند حيث تسعى حكومة الإنكليز كل سعيها لتنصير أهله، وما اقتدرت إلى الآن على تنصير نفر

واحد من المسلمين، وأما من المشركين فإن تنصّر واحد أسلم ألف. والإسلام يترقى في الهند كترقّيه في الصين وغيره، مع أن حكومة الهند حكومة نصرانية.

واعلم أعزّك الله أن عدد المشركين في الأرض أكثر من عدد المسلمين وأهل الكتاب معًا، وهم كلهم مستعدون لقبول الإسلام، فإذا أسلم جميعهم كأنه أسلم بنو آدم كلهم. ولابدّ من اندراس الشرك وتطهير الأرض من نتائجه الخبيثة كذبح البشر وأكل لحمه، وحرق النساء مع ميت رجالهم، وغيرها من العادات الجاهلية والأحوال المستهجنة. وأما أهل أوروبا فلما فهموا أن المشركين لا يقبلون النصرانية جهدوا في إمحاء هؤلاء المساكين مع دينهم، وصادوهم وقتلوهم كالبهائم، وأتوا بأهالٍ من أوروبا لإسكان أوطانهم الخالية، كما وقع هذا في عدة جزائر في البحر المحيط، وهذا لظلم عظيم. وأما المسلمون فما قصدوا ضبط بلاد المشركين ولا قتلهم أبدًا، بل مرامهم إنما هو نشر الإسلام بينهم وإزالة الشرك والكفر منهم، فالمسلم محبوب عندهم والنصراني منفور. ولو كنا أسّسنا جمعيات لنشر ديننا المبين وصرفنا مبالغ لهذا المقصد، كما فعل النصرانيون، لما كان في الأرض مشرك إلا وقد أسلم، ولكان كل جهات آسيا وإفريقية من ممالك الإسلام.

وإن كان دين الله قد ينتشر بلا سعي بشري كما ذكرناه، ولكن لما كنّا مكلّفين بالجهاد أظنّ أنه قد وجب علينا الجهد في هذا المرام لنشر أنوار الإسلام في أقطار الأرض وتخليص أهلها من ظلام الشرك والجهل، بل من الهلاك؛ لأنهم إن بقوا في حالهم فسيستولي عليهم أهل أوروبا، وسيهلكونهم لضبط أراضيهم

وأموالهم. وهم، مع أنهم جاهلون، مدركون لهذه الحقيقة؛ ولذلك هم متهيئون لقبول الإسلام إذا وقع التبليغ والتلقين، وهم يعلمون أنهم إذا أسلموا سلموا عن هذه التهلكة؛لأن النصرانيين لا يقتدرون شيئًا على المسلمين. فإن جهدنا فالتوفيق معنا، وإن أهملنا فالوبال علينا، لأن أهل أوروبا لا يهملون، بل يسعون كل سعيهم ولا سيما في هذه الأعوام الأخيرة، فربما يغلق يومًا الأبواب التي هي مفتوحة اليوم لترقّي الإسلام.

ولا يخفى أنه لكل شيء أسباب، فمن أراد حصوله وجب عليه التزام أسبابه، فأقوى أسباب هذا المقصد هو الارتباط والمناسبة بين المسلمين. ونحن لا نقصد هنالك اتحادًا سياسيًّا ولا مذهبيًّا؛ لأن الاتحاد السياسي هو متعسّر جدًّا، والاتحاد المذهبي مستحيل، وإنما مرامنا من الارتباط هو ارتباط ديني وشرعي بين المسلمين، وهو واجب لكل مسلم في أي مذهب كان وأية دولة تبع. فكما أن النصرانيين الذين تحت تابعية الدول الإسلامية يتبعون في أمر دينهم رؤساءهم كذلك المسلمون الذين هم تحت تابعية الدول النصرانية، أو هم تحت إدارة أمير من أمراء الإسلام يلزم عليهم أن يتّبعوا في أمر دينهم خليفتهم المشروع، وهو السلطان العثماني بلا خلاف. فيجب تأسيس مناسبات مستمرة وارتباط قوي لجميع البلاد الإسلامية مع دار الخلافة السنية. وهذا الارتباط إنما هو ارتباط معنوي وديني، فلا سبب لإيقاع المشكلات في هذا من أحد؛ لأن الشريعة الإسلامية تأمر المسلمين بأن لا يعملوا في أمر دينهم إلا بأمر خليفتهم المشروع.

فإذا توسّل مسلمون بهذا الأمر الشريف فقد حصل الارتباط بين جميع الأمم الإسلامية.

ولابد لنا من ذكر نبذة في الأمم المسلمة المشهورة وتقسيمها في الممالك الإسلامية.

اعلم - أنفعك الله - أن أكبر الأمم المسلمة وأعظمها العرب، وقد ظهر الإسلام بينهم، وكان النبي ﷺ منهم، فلهم شرف وفضل على جميع الأمم المسلمة. وعدد نفوسهم نحو ستين مليونًا، وهم منتشرون في جميع جزيرة العرب (أي الحجاز واليمن وحضرموت ومسكت[١] ونجد والبحرين) والسورية (أي برّ الشام وأرض فلسطين) والجزيرة والعراق العربي والمصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الأقصى (أي فاس ومراكش) والصحراء البكير إلى بلاد الزنج. ولسانهم لسان واحد، وهو أفصح الألسنة في الأرض وأملحها، وقواعده مضبوطة وكتبه الموجودة بحد لا تحصى. وللعرب خاصة غريبة، وهي أنهم يستعربون كلّ من لقوه أو لقاهم، ولا يستعجمهم أحد أبدًا، فلذلك يزاد عددهم يومًا فيومًا. وقد استعرب أقوام نصرانية من السريانيين وغيرهم، وهم يستعملون اللسان العربي والخط العربي في كل أمورهم الدنيوية والأخروية، فظهرت في الأدبيات العربية شعبة نصرانية. ومن الغريب أن النصرانيين هؤلاء يترقّون في العلم والمعارف أكثر من المسلمين. فوجب للمسلمين السعي والتقيّد لأن يسبقوا

---

(١) المقصود: مسقط.

النصرانيين في المعارف الجديدة كما سبقوهم في الفصاحة والأدب؛ لأن اللسان العربي هو لسان الإسلام.

ومن أعاظم الأمم المسلمة بعد العرب الترك؛ لأن عددهم نحو خمسة وعشرين مليونًا، والأقاليم المسكونة منهم ممتدة من بحر ونديك[1] في أوروبا إلى داخل الصين في وسط آسيا، ومن الصحاري المتجمدة في سيبريا إلى حدود الهند والعراق وبرّ الشام. وهم منقسمون إلى شعب كثيرة، لكن يمكن الإجمال إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول: أتراك الغرب أي العثمانيون، وهم ساكنون في بلاد الروم أي روم ايلي في أوروبا وأناطولي في آسيا، وهم أشرف الأقوام التركية، ولسانهم أفصح اللغات التركية وأعذبها. والسلاطين العثمانيون الذين بيدهم الخلافة الإسلامية وصيانة حقوق الملة المرحومة، صانهم الله من كلّ آفة ورزيّة، منسوبون إلى هذا القوم النجيب، ومازالوا يبذلون كل جهدهم في حفظ المسلمين وفي إعلاء شأن الإسلام منذ ست مائة سنة، وهم آمرون وحاكمون في كل بلاد العرب سوى ثلاثة بلاد: بلد الجزائر الذي استولى عليه الفرنسيس بغير حق، والمغرب الأقصى، وإمامة مسكت في جزيرة العرب. والقسم الثاني: أتراك الشرق الساكنون في ما وراء النهر وفرغانة وخطا أي في التوران القديم، وكانت تلك الممالك خاصة أوطان الأتراك في القديم، ولسانهم أصل واللسان العثماني فرع له، ويطلق لسانهم بجغتاي، وهو لسان خشين جدًا لا عذوبة له بخلاف

---

(١) المقصود: بحر الشمال.

العثماني، وفيه كتب قديمة وأدبيات وأشعار، ولكن قد تميّز اللسان العثماني في المعارف الجديدة. والقسم الثالث: التاتار وهم ساكنون في نواحي بحر الخزر وفي ممالك روسيه التي في قطعة أوروبا ولا سيما في بلاد قزان وجزيرة قريم، ولسانهم بين الجغتاي والتركي العثماني. وما من الأتراك إلا العثمانيون الذين يحافظون استقلالهم، أما أتراك الشرق والتاتار فهم جميعهم تحت استيلاء الروس، وأما أتراك المشرق الأقصى أي كاشغر وخطا فقد استولت عليهم دولة الصين.

ومن الأمم الإسلامية العظيمة الفرس، ووطنهم الأصلي إيران أي بلاد فارس وعراق العجم ومازندران وخراسان وقد انتشروا في أفغانستان وبلوجستان، أي بلاد كابلستان وهرات وكلات إلى ما وراء النهر شمالاً وحتى وسط الهند جنوبًا. وكان لسانهم الفارسي أشرف الألسنة الإسلامية بعد العربي، فاتخذه أهل آسيا الوسطى لسانًا أدبيًّا لهم. فأهل أفغانستان وبلوجستان الذين يتكلمون بلغات مخصوصة لهم يكتبون ويقرءون بالفارسي، وكثر ما فعل هذا أتراك ما وراء النهر أيضًا. وكان المسلمون في الهند منذ زمان قريب لا يقرءون ولا يكتبون إلا بالفارسي كما سيأتي. وفي الجملة فمن يتكلم بالفارسي قليل لا يتجاوز عددهم عشرين مليونًا، ولكن هذا اللسان معلوم عند أكثر المسلمين في آسيا الوسطى، وهو يحرز الدرجة الثانية بين الألسنة الإسلامية.

والرابعة من الأمم الإسلامية مسلمو الهند وهم نحو ستين مليونًا ولكنهم منقسمون إلى شعب كثيرة، وكانوا إلى عهد قريب يستعملون اللسان الفارسي

في القراءة والكتابة، ولا يستعملون ألسنتهم إلا للتكلّم. ولكن اليوم هم يقرءون ويكتبون لسان (أردو) الذي أفصح ألسنتهم وأعظمها. ويوجد في هذا اللسان كتب كثيرة، وتنتشر به كازتات[١] متعددة في بلاد الهند.

والدرجة الخامسة بين الأمم الإسلامية للملائيين، وهم أهل سواحل الهند الشرقي وجزائر البحر المحيط. وهذه الأمة منتشرة في جميع جهات البحر المحيط الكبير، فتجدهم في آجه وسومتره وجاوه وبورنئو وكينه الجديدة، كما تجدهم في مداغسقر وهي جزيرة كبيرة في قرب إفريقية، ثم تراهم في الجزائر الواقعة أمام أمريكا، كأن وطنهم البحر المحيط الكبير كله. ومن هذه الأمة من في سواحل الهند الشرقي كآجه وسومتره[٢] ومن في الجزائر الواقعة في البحر المحيط الهندي كجاوه وبورنئو وكينه الجديدة فمسلمون، ومن في الجزائر البعيدة فمازالوا قانطين في الشرك والكفر. والمسلمون منهم، وهم أكثرهم، يكتبون لسانهم ويقرءونه ولهم كتب كثيرة فيه.

وبعد ذكر هذه الأمم الخمسة، التي من أعاظم الأمم الإسلامية، يجرّ الكلام إلى الأمم الزنجية التي في قطعة إفريقية، وهي أمم كثيرة مختلفة متكلمة بألسنة مخصوصة. ولما كان حجم هذه الرسالة غير مساعدة لتعداد أجناسهم، التزمنا ذكرهم على الإجمال. فنقول أولاً إن عددهم أكثر مما كانوا يظنونه؛ لأن السودان

(١) المقصود: الجرائد.

(٢) المقصود: أتشيه وسومطرة.

الشرقي والغربي ومنابع نيل المصر ونيل الأسود، أي البلاد الواسعة الكائنة في وسط قطعة إفريقية العظيمة مسكونة بأهالٍ كثيرة زنجية مسلمة، وكذلك السواحل الشرقية إلى زنجبار. وثانيًا إن دين الإسلام منتشر بين الأمم الزنجية بأكثر مما كانوا يظنونه؛ لأنه قد تحقق أن أكثر الجهات المجهولة إلى الآن في ما وراء خط الاستواء مسكونة بأهالٍ مسلمة، والذين لم يسلموا إلى الآن فقد يسلمون كلّ يوم. فيمكن لنا التخمين أن نفوس الأمم الزنجية المسلمة في إفريقية ليست بأقل من سبعين أو ثمانين مليونًا. وهم لا يكتبون ألسنتهم، بل علماؤهم يقرءون ويكتبون العربي فقط.

وقد توجد أقوام صغيرة مسلمة في كل الأقطار الإسلامية كالأكراد وأقوام أفغانستان والجراكسة والأرنئوط والبشناق وغيرهم، ولا حاجة لتعدادها. وهذه الأقوام لا يكتبون ألسنتهم، بل يقرءون العربي واللسان الذي أقرب بهم كالتركي والفارسي. أما مسلمو الصين فلما كانوا مهجورين من مراكز الإسلام إنما يعلمون قراءة القرآن الكريم فقط بالعربي، وهم مضطرون لتحرير لسانهم بالخط الصيني السقيم، فقد وجب السعي لنشر العلوم العربية والشرعية بينهم ولتأسيس مناسبات بينهم وبين العالم الإسلامي.

فجميع المسلمين في الأرض زيّدهم الله وكثّرهم نحو مائتي مليون. واللسان العربي لسان عام في جميع الممالك الإسلامية؛ لأن كلام الله القديم يقرأ ويحفظ في جميع هذه الممالك، وجميع العلماء يدرسون العلوم الشرعية في

الجوامع والمدارس بهذا اللسان الشريف، فلا بدّ لكل مسلم عالم من علمه. وبعد العربي يأتي الفارسي، وهو لسان إسلامي يعلمونه أهل آسيا الوسطى ويتعلمونه أمم وأقوام كثيرة كالأتراك والهنود والأكراد وغيرهم، ويكتب بالخط العربي وهو ممزوج بلغات واصطلاحات عربية فكأنه فرع من فروع العربي. وبعد الفارسي ثلاثة ألسنة إسلامية تكتب بالخط العربي، وهي التركي (المنقسم إلى شعبتين كما ذكرناه) والهندي المسمى بأردو والملائي. أما التركي والهندي فممزوجان بألفاظ عربية وفارسية، وأما الملائي فجامع لكلمات عربية فقط.

ولا يخفى أنه لو كان العربي لسان جميع المسلمين لكان أحسن بالوجوه، ولكن لمّا كان مراد الله تعالى بخلاف ذلك، ولمّا كان في الأرض أمم وأقوام مسلمة تتكلم بألسنة غير العربي، فالأنفع لهذه الأمم أن يكتب كل واحدة منها لسانها، كما تكتبه الأمم الأربعة المذكورة. فلكان خير للإسلام أن يكتب ألسنة إسلامية سوى الألسنة الخمسة (أي العربي والفارسي والتركي والهندي والملائي) كلسان الأكراد والجراكسة وأقوام الزنج وغيرهم؛ لأن العربي مخصوص للعلماء الذين يبذلون كل أوقاتهم في تحصيله ولا يمكن لكلّ أحد تعلّمه، فيبقى عوام تلك الأمم والأقوام في الجهل، والجهل مناف للإسلام، وكثير من جهلاء تلك الأقوام غافلون عن حقيقة الإسلام وأحكامه المنيفة. فأظنّ أنه لو كان يقع سعي وجهد لتحرير جميع الألسنة الإسلامية بالخط العربي ولتأليف كتب دينية وشرعية ومواعظ هادية مرشدة في كل واحد من تلك الألسنة، لكانت هذه خدمة عظيمة

لنشر الإسلام وتعميم أنواره المنجية. ومع هذا يجب الاهتمام في تعميم اللسان العربي وتكثير عالميه؛ لأنه رابطة قوية لاتحاد المسلمين، وواسطة سالمة لتأكيد أحكام الدين المبين. ونحن نرجو التوفيق وندعو بالخير (لإخوان الرشد) الذين يبذلون كل جهد في نشر الإسلام وتعميم أنواره ومعارفه في جميع أقطار الأرض. وإنما هذه الرسالة هدية ومخطرة لهم، وفّقهم الله وصانهم، والحمد لله على التمام.

وقد وقع الفراغ عن تحرير هذه الحروف في دار خلافة قسطنطينية، صانها الله وصاحبها عن كل آفة وداهية. حرّر في سنة اثنتين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل التحية.

﴿نهاية المتن﴾

## محمد الأرناؤوط

- أكاديمي كوسوفي سوري، متخصص في التاريخ الحضاري للبلقان خلال الحكم العثماني، والإسلام في البلقان ما بعد العثماني، والعلاقات البلقانية العربية.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة بريشتينا عام ١٩٨٦، عمل محاضرًا في قسم الاستشراق بجامعة بريشتينا في الفترة من (١٩٧٤-١٩٨٧)، وأستاذًا مساعدًا في قسم التاريخ بجامعة اليرموك في الفترة من (١٩٨٩-١٩٩٥).
- يعمل حاليًا أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة آل البيت / الأردن منذ عام ١٩٩٥، كما شغل مدير معهد بيت الحكمة للعلوم السياسية في الفترة من ١٩٩٥-٢٠٠٥، ومركز دراسات العالم الإسلامي في جامعة آل البيت في الفترة من ٢٠٠٦-٢٠٠٩.
- عضو أكاديمية العلوم والفنون الكوسوفية، وعضو (مراسل) مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو اتحاد المؤرخين، وعضو هيئة تحرير «المجلة الأردنية للتاريخ والآثار» (٢٠٠٥-٢٠١٠).

### من كتبه وأبحاثه المنشورة في العربية

- «الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية».
- «الكتابة باللغة العربية في البوسنة».
- «الوقف في العالم الإسلامي بين الماضي والحاضر».
- «التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي».
- بالإضافة إلى مئات المقالات في الصحف العربية والألبانية.

# اللجنة الاستشارية للمشروع

## ٢٠١٣/٢٠١٢

**إسماعيل سراج الدين** (مكتبة الإسكندرية)، مصر - **رئيس اللجنة.**

**إبراهيم البيومي غانم** (جامعة زايد، دبي)، الإمارات العربية المتحدة.
**إبراهيم زين** (الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور)، ماليزيا.
**أبو يعرب المرزوقي** (عضو المجلس التأسيسي، وزير مستشار لدى رئيس الحكومة التونسية في مجالي التربية والثقافة)، تونس.
**جاسر عودة** (مركز دراسات التشريع والأخلاق، كلية الدراسات الإسلامية)، قطر.
**حسن مكي** (جامعة إفريقيا العالمية)، السودان.
**رجب شان ترك** (جامعة فاتح، إسطنبول)، تركيا.
**رضوان السيد** (الجامعة اللبنانية، بيروت)، لبنان.
**زاهر عبد الرحمن عثمان** (مؤسسة إعمار بالرياض)، السعودية.
**زكي الميلاد** (رئيس تحرير مجلة الكلمة)، السعودية.
**زينب الخضيري** (جامعة القاهرة)، مصر.
**سعيد بنسعيد العلوي** (جامعة الرباط)، المغرب.
**صلاح الدين الجوهري** (مكتبة الإسكندرية)، مصر- **أمين اللجنة.**
**ظفر إسحق أنصاري** (الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد)، باكستان.
**عبد الرحمن السالمي** (وزارة الأوقاف والشؤون الدينية)، عُمان.
**عمار الطالبي** (جامعة الجزائر)، الجزائر.
**محمد زاهد جول** (كاتب وباحث)، تركيا.
**محمد عمارة** (هيئة كبار العلماء، الأزهر الشريف، القاهرة)، مصر.
**محمد كمال الدين إمام** (جامعة الإسكندرية)، مصر.
**محمد موفق الأرناؤوط** (جامعة آل البيت)، الأردن.
**مصباح الله عبد الباقي** (جامعة كابول)، أفغانستان.
**منى أحمد أبو زيد** (جامعة حلوان، القاهرة)، مصر.
**نور الدين الخادمي** (وزير الشؤون الدينية)، تونس.
**نوزاد صواش** (مؤسسة البحوث الأكاديمية والإنترنت، إسطنبول)، تركيا.

## سلسلة «في الفكر النهضوي الإسلامي»

### صدر في هذه السلسلة

(١) العــودة إلــى الــذات، تأليف علي شريعتي.
(٢) الحياة الروحية في الإسلام، تأليف محمد مصطفى حلمي.
(٣) امرأتنا في الشريعة والمجتمــع، تأليف الطاهر الحداد.
(٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، تأليف عبد العزيز جاويش.
(٥) المــرأة والعمــل، تأليف نبوية موسى.
(٦) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، تأليف مصطفى عبد الرازق.
(٧) دفــاع عـن الشـريعـة، تأليف علال الفاسي.
(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، تأليف الطاهر ابن عاشور.
(٩) تجديد الفكر الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة محمد يوسف عدس.
(١٠) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تأليف عبد الرحمن الكواكبي.
(١١) المدرســة الإسـلامية، تأليف محمد باقر الصدر.
(١٢) الإسلام وأصول الحكم، تأليف علي عبد الرازق.
(١٣) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تأليف خير الدين التونسيّ.
(١٤) الحرية الدينية في الإسلام، تأليف عبد المتعال الصعيديّ.
(١٥) الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية، تأليف حسين الجسر.
(١٦) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، تأليف محمد الغزالي.
(١٧) القرآن والفلسفة، تأليف محمد يوسف موسى.
(١٨) كشف المخبّا عن فنون أوربا، تأليف أحمد فارس الشدياق.
(١٩) المرشد الأمين للبنات والبنين، تأليف رفاعة الطهطاوي.
(٢٠) شروط النهضة، تأليف مالك بن نبيّ.
(٢١) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تأليف رفاعة الطهطاويّ.
(٢٢) نهضة الأمة وحياتها، تأليف طنطاويّ جوهريّ.
(٢٣) البيان في التمدن وأسباب العمران، تأليف رفيق العظم.
(٢٤) - (٢٥) تحـرير المـرأة، تأليف قاسم أمين، وتربية المرأة والحجاب، تأليف طلعت حرب.
(٢٦) تنبيه الأمة وتنزيه الملة، تأليف محمد حسين النائيني، تعريب عبد المحسن آل نجف، تحقيق عبد الكريم آل نجف.
(٢٧) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، تأليف محمد باشا المخزومي.
(٢٨) - (٢٩) السفور والحجاب، تأليف نظيرة زين الدين، ونظرات في كتاب السفور والحجاب، تأليف مصطفى الغلاييني.
(٣٠) في الاجتماع السياسي الإسلامي، تأليف محمد مهدي شمس الدين.
(٣١) لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟، تأليف الأمير شكيب أرسلان.
(٣٢) المدنية الإسلامية، تأليف شمس الدين سامي فراشري، ترجمة وتقديم محمد م الأرناؤوط.
(٣٣) المدنيــة والإسلام، تأليف محمد فريد وجدي.
(٣٤) المســئلة الشرقية، تأليف مصطفى كامل.
(٣٥) وجهة العالم الإسلامي، تأليف مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين.
(٣٦) طلعة الشمس شرح شمس الأصول، تأليف نور الدين عبد الله بن حميد السالمي.

# 'AL-MADANIYYAH 'AL-'ISL ĀMIYYAH

## Islamic Civilization

**Shams-'al-Dīn Frāshrī**

DAR AL-KITAB AL-MASRI

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI

دار الكتاب المصرى
القاهرة

لا يهدف المشروع فقط الى إعادة إصدار آخر طبعة أصلية صدرت في حياة المؤلف. حتى نتجنب ما تم من تحريف متصود أو غير مقصود على يد بعض الناشرين للكتب بعد رحيل المؤلف. وإنما يتم أيضا إعداد دراسة تقديمية موسعة لكل كتاب، يقوم بها باحثون متخصصون، في محاولة لعرض فكرة الكتاب وقضيته المحورية في ضوء القضايا المطروحة في سياق ذلك العصر، وفي ضوء المشروع الفكري للمؤلف. وتقوم اللجنة العلمية للمشروع بمراجعة هذه الدراسات التقديمية وعقد مناقشات مفتوحة لاصحابها مع نظرائهم من الباحثين وذلك قبل اقرارها للنشر.




# 'AL-MADANIYYAH 'AL-'ISL ĀMIYYAH

(32)

## هذا الكتاب

طُبع لأول مرة عام (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) باللغة التركية في إسطنبول، وتلك هي أول ترجمة عربية له. جاء صدوره في وقت عصيب؛ ليشحن القُراء- آنذاك- بالأمل في نهضة جديدة، بإطلاعهم على ما وصل إليه المسلمون من مدنية على مستوى العالم بفضل اهتمامهم بالعلم والمعرفة، في الوقت الذي كان ينبهر فيه البعض بالمدنية الأوروبية الحديثة التي أخذت تسيطر على العالم بآلتها العسكرية، وتأكيده على أن المسلمين يمكن بذلك الطريق نفسه أن يستعيدوا مشاركتهم في المدنية الحديثة.

يركز شمس الدين سامي فراشري على «المدنية الإسلامية» وإسهاماتها على المستوى العالمي في كل المجالات العلمية، وأن «المدنية الأوروبية الحديثة» قامت بالاستناد إلى «المدنية الإسلامية»، ولم تولد مباشرة من «المدنية اليونانية القديمة».

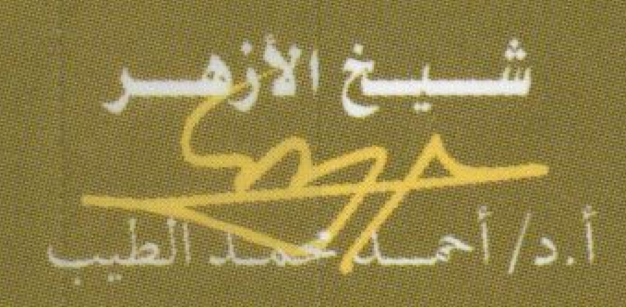
كما يُلحّ على: إعلاء قيمة الإنسان والعقل، وأن الإسلام ليس دين عنف، ولم ينتشر بالسيف، ولا يتعارض مع العلم والحقيقة والحياة، بل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمدينة. وأن التمدّن لا يبدأ من فراغ ولا يختص بشعب؛ بل هو حصيلة التراكم البشري.

**يقول الإمام الأكبر أحمد الطيب عن المشروع:**




إن هذا المشروع الذي تقوم به مكتبة الإسكندرية - وهي تستهدف إعادة نشر الإنتاج العلمي والثقافي لأعلام نهضتنا في العصر الحديث - ليُعدُّ فيما أرى - من أهم المشاريع العلمية نحو تأصيل المفاهيم الثقافية في العالم الإسلامي وإعادة تأسيس عقل إسلامي معاصر يستوعب أصوله، ويعيش عصره. وإني أدعو إلى ترجمة هذه الأعمال إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها، بكل الوسائل الورقية والإلكترونية.

شيخ الأزهر



أ.د/ أحمد محمد الطيب






ISBN: 978-977-452-169-4




DAR AL-KITAB AL-MASRI
CAIRO

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI
BEIRUT